أمـــــاليـــــا

ميرفت البلتاجي

(أماليا)... ميرفت البلتاجي.
الطبعة الأولى: أكتوبر ٢٠١٤.
تصميم الغلاف: محمد مجدي.
تدقيق لغوي وتحرير: إسلام علي.
المدير العام: رباب الشهاوي.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/٢٠٩٠٨
رقم الإيداع الدولي: ٦-٣-٨٥١٥٣-٩٧٧-٩٧٨ ISBN

هذا العمل عربي مائة في المائة ولا تشوبه شبهة الترجمة أو النقل.

Alfouad_publishing@hotmail.com



أمـــــــــاليـــــــــــــا

ميرفت البلتاجي

روايـــــــــة





إهداء

إلى ماما وبابا حفظكما الله لي

إلى أختي لبنى تمنيت لو كنتِ معي ليرحمك الله

أخوتي لميا ومنار شكراً لدعمكما فأنتما أول قراء لخربشاتي

ولأسرتي الجميلة. .زوجي العزيز وأبنائي

روان و مروان و زيـــاد

صديقة عمري منى لن أنسى أنك أول من تنبأ لي

بأنني سأصبح كاتبة. . وكنتِ أول ناقدة

وأخيرًا نهى تعلمين مقدار معزتك في قلبي . . شكرًا لكل ما

فعلتيه من أجلي ودفعك المستمر لي

شكر خاص لأم توفي العزيزة

كل الأماكن التي ورد ذكرها في الرواية حقيقية، ولكن الشخصيات من خيال وابتكار الكاتبة، وأي تشابه قد يرد في الأحداث والشخصيات سيكون مجرد صدفة غير مقصودة.

(١)

أخرج الهواء من صدره بتنهيدة كبيرة، وهو يتطلع لمدينة الضباب من خلال نافذة الطائرة، وقد ظهرت تفاصيل مبانيها العتيقة عندما حلقت الطائرة على نحو منخفض، استعدادًا لنزول المطار.

كان يتفرس في كل تفاصيلها، وكأنه يسترجع ذكريات قديمة قدم تلك المباني الحجرية القديمة بجمالها الأخاذ، والتي حلقت الطائرة حولها مرتين، وكأن قائد الطائرة يسمح للمسافرين بإلقاء التحية عليها، قبل أن تلامس الإطارات أخيراَ أرض المملكة المتحدة.

اقتربت المضيفة الحسناء توزِّع ابتسامتها على الركاب، حتى اقتربت منه وازدادت اتساعًا، وهي تنحني نحوه بإيماءة واعدة، قائلة بلغة انجليزية سليمة: «مرحباَ بك في بلادي سيد (أسيوطي). أتمنى أن تسمح لي بمرافقتك في رحلتك السياحية لبعض الأماكن التي لا يعرفها إلا البريطانيون فقط»

جاملها بابتسامة مهذبة لم تخل من البرود الإنجليزي، قائلًا بلكنة مصرية ـ «ولكنني لست غريباَ؛ لقد عشت نصف حياتي تقريباَ في بلدكم، وأعرفها مثل ظاهر يدي»

لم تيأس المضيفة الجميلة، فرمشت لتثير انتباهه لزرقة عينيها ووجنتيها المحمرتين: «هذا يعني أننا سنلتقي أكثر مما اعتقدتُ»

زفر حانقًا، وقد شعر أن المحادثة استهلكت أكثر مما ينبغي من وقته.

ـ «ربما.. عندما تتعرفين على زوجتي وابنتي لا شك أنك ستغرمين بهما، مثلي تمامًا. نحن نعيش في مقاطعة (ويلز)»

اعتدلت الفتاة وقد هربت الدماء من وجهها، وأجابته بعينين زائغتين ونبرة مهنية بحتة: «حقًا!؟ أه عفوًا يبدو أن أحدهم يناديني.. مرحبًا بك مرة أخرى»

أومأ بنظرة ساخرة، وهو يعدّ نفسه للّحاق بركب المسافرين الذين بدؤوا بالنزول فعلًا.

وصل بسهولة لختم جواز سفره.. تطلعت له ضابطة الجوازات من خلال النافذة الزجاجية: «مرحبًا بعودتك سيد أسيوطي. غبتَ طويلًا عن المملكة المتحدة! ألم تشتق لنا أم أن دفء مصر أنساك برودة بلادنا البيضاء؟»

أومأ بلباقة: «مصر هي بلدي الأم.. ولكن بريطانيا هي والدتي بالتبني»

اتسعت ابتسامتها العذبة، وهي تتطلع لسواد عينيه ينطق برجولة عززها قوامه الفارع وأكتافه العَضِلة. تنهدت وهي تختم الجواز وتقدمه له.

ـ «هل تنوي البقاء طويلًا هذه المرة؟»

ـ «لا أعتقد.. شوقي لأمي يناديني.. لابد يومًا أن ألبي النداء»

ـ «أتمنى لك إقامة سعيدة»

سحب جوازه وانطلق خارج المطار، لا يحمل في يده غير حقيبته السوداء، وعلى ذراعه ارتاح معطفه الكشمير، والذي ارتداه فور خروجه من دفء

قاعة المطار إلى صقيع لندن عاصمة الضباب، والتي كان يسمع عنها كثيراَ، ولكنه لأول مرة يدرك أنهم أبخسوها قدرها.

لم يعاني كثيراَ من رذاذ الثلج المتطاير، والذي يُنبئ بعاصفة ثلجية قادمة. توقف أمامه التاكسي المميز بلونه الأسود، فركبه ثم أشار للسائق.

ـ «محطة القطار لو سمحت»

أومأ السائق، وانطلق بسيارته يخترق رذاذ الثلوج التي تتساقط بلا توقف، وكأن هذا هو الطقس الطبيعي الذي اعتاد عليه دائمًا دون أن يشكو أو يتذمر؛ فماسحات الزجاج الأمامي تتراقص بلا توقف لتؤدي مهمتها في إزاحة الثلوج المتراكمة.

هنّأ نفسه لحسن فطنته في معرفته لجنسية السائق عندما تطلع لرخصته المعلقة في خلفية المقعد الأمامي، وتأكد أنه فعلًا من أهل هذه البلاد الباردة؛ فلا أحد مثلهم يملك تلك البشرة الشديدة الشحوب، والوجنات المكتظة، والأنوف المحمرة من البرد.

اضّجع في المقعد الخلفي للسيارة، متأملًا نفسه في المرآة الأمامية، وفكر أن بشرته الحنطية السمراء هدية وادي النيل لكل أولاده لا تتأثر بسهولة بصقيع وبرودة تلك البلاد المكسوة بالضباب.

تنهد محدقًا في الصور المتحركة من النافذة، يكاد لا يراها فعلًا، عندما غامت أفكاره بمهمته القادمة. نظر في ساعته وبدأ قلبه يدق بعنف خوفًا

أن لا يصل في الوقت المناسب. ساعتين سيستغرقهما القطار للوصول لـ (ويلز)، والساعة الآن الواحدة بعد الظهر، بينما الموعد الذي أخبروه عنه سيكون في الخامسة عصرًا. ندم لأنه لم يأتِ مبكرًا، ولكن حجز الطائرة لم يُتَح إلا اليوم.

أغمض عينيه، وقرأ في نفسه آية قرآنية يعرف جيدًا أنها لم تخذله أبدًا. بسم الله الرحمن الرحيم "ربِّ أدخلني مُدخَل صدقٍ وأخرجني مخرج صدقٍ واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا". وظل يردد الآية حتى أعلن السائق وصولهما لمحطة القطار.

نقده أجرته، وأسرع يركض نحو المحطة. استغرق وقتًا لا بأس به حتى وصل لرصيف القطار المتجه لـ (ويلز). قطع التذكرة في آخر فرصة متاحة، وركض ليلحق بالقطار، الذي ينفث دخانه كتنين كبير على وشك الإقلاع.

اتخذ مقعده بتنهيدة راحة كبيرة، وهو يتطلع لساعته، والتي أشارت للثانية بعد الظهر.

تنهد براحة ـ«ما يزال هناك وقت»

ثم فكر.. "ماذا لو وصلتُ متأخرًا؟؟ أو لو قدموا الموعد؟؟"

أفكاره السوداء لم تُتِح له فرصة التمتع بجمال الريف الإنجليزي من نافذة القطار، ولا بروائح الزهور الجميلة التي تهفو عليه كلما مر القطار بمنطقة

حافلة بأنواع مختلفة الأشكال والألوان. فكرة واحدة سيطرت على كل حواسه.. فكرة واحدة لا غير.

"لابد أن أصل قبل فوات الأوان!"

* * * * *

(٢)

وسط الجنة الخضراء من الريف الإنجليزي الشهير، ظهرت فيلا مبنية على الطراز الفيكتوري؛ بسطحها القرميدي، ونوافذها الزجاجية، وحولها الحديقة الغناء من مختلف أنواع الزهور الشهيرة. على عكس الطقس في (لندن) كانت (ويلز) مشمسة نوعًا، رغم أن الشمس الباردة كانت تختلس لهم النظر على استحياء من خلف الغيوم الكثيفة الشبيهة بأكياس كبيرة من القطن الهش.

تراصت مقاعد بيضاء مزينة بعقدات ذهبية في ساحة الحديقة، وأمامها وضعت مائدة مستديرة تمت تغطيتها بمفرش أبيض مزين بعقدات ذهبية من الحواف. جلس على صدر المائدة رجل وقور، تطلع على يمينه للعروس التي تخفي شعرها الأشقر الذهبي هالة من التول الأبيض. تطلعت العروس للرجل بثقة، ثم للرجل على يساره بنظرات أقل رومانسية من نظرات عروس تنظر لعريسها المستقبلي، وأخيراً رقَّت نظراتها وهي تتطلع للفتاة الصغيرة بالثوب الأبيض والعقد الذهبية في شعرها الأسود، وقد جلست على مقعد جوارها كأنها عروس أيضًا.

بدأ الرجل الوقور بافتتاح مراسيم الزواج حسب الشريعة الإسلامية على أرض إنجليزية صرفة. ساد الصمت والسكون التام بينما المأذون يتمم إجراءات الزواج، ويطلب من العروس والعريس التوقيع بأسمائهم على

القسائم. وفجأة، وقف رجل طويل أسمر البشرة من آخر صفوف الضيوف، وسأل المأذون باللغة الإنجليزية وهو يتقدم باتجاههم: «ألن تسأل الحضور إن كان هناك من يعترض على هذا الزواج؟»

استدار كل الحضور، بما فيهم العروس والعريس، باستغراب شديد لهذا الرجل. كانت الرؤية لدى العروس شبه معدومة؛ فطبقة التول الكثيفة فوق وجهها لم تمكنها من رؤية ملامح الرجل وهو يستمر في تقدمه نحوهم، بينما أجابه المأذون: «ولكن هذه طقوس زواج إسلامية يا سيد»

أومأ الرجل وقد أصبح أمامهم تمامًا. ألقى نظرة حانية على الطفلة الصغيرة، التي كانت تحدق به بعينين متسعتين ولسان معقود من الدهشة، ثم عاد ليوجه اهتمامه للمأذون: «ومع ذلك أنا أعترض؛ فالسيدة (ديالا) لا يمكنها الجمع بين زوجين في الديانة الإسلامية أو أي ديانة أخرى»

وقفت (ديالا) بعد أن رنت أصداء كلمات الرجل المعترض على زواجها بصدى مزعج لأذنيها. رفعت الخمار عن وجهها بسرعة، محملقة في الرجل تهم بالرد، عندما أثار انتباهها شهقة مرعبة خرجت من حنجرة عريسها، وهو يصيح في شبه صراخ: «(مـــــــــراد)!! مستحيل!!»

بصعوبة حولّت (ديالا) وجهها عن عريسها المصدوم بعينيه الجاحظتين، لتنظر للرجل الذي دعاه باسم المرحوم زوجها بنبرة رعب هيتشكوكية، وما كادت تتأمل ملامحه الصلبة ونظرته الثاقبة، حتى هزت رأسها يمينًا ويسارًا

معترضة بقوة على ما تراه بعينيها، ثم حدقت بالمأذون الشاب متمتمة بنبرة ذاهلة: «هذا مستحيل!! أنا... أنا زوجي... ميت!»

نبرته الساخرة اخترقت حتى أدق عظامها، وهو يجيبها بتهكم واضح: «على ما يبدو أنكِ مخطئة يا زوجتي العزيزة.. وأنني -كما هو واضح للجميع- على قيد الحياة، تمامًا مثل كل شخص يعرفني في هذا الجمع السعيد. حتى (أملي) الصغيرة تعرفني.. أليس كذلك يا صغيرتي؟»

وجّه جملته الأخيرة للطفلة الصغيرة، التي كانت لا تزال تنظر له بخوف. وعندما ركع أمامها تشجعت لتنتقل من كرسيها وتقف أمامه، لتصبح في مستوى رأسه قائلة: «بابا كان يدعوني بهذا الاسم أيضًا»

ـ «أعرف حبيبتي.. لأنني أنا أبوك»

دمعت عينا الصغيرة وهي تلقي بنفسها بين أحضانه بدموع شوق شديدة: «بابا حبيبي.. أخبروني أنك مت»

صوت في الخلفية ما يزال مصدومًا: «لا! هذا لا يحدث! مستحيل! (مراد) مات.. مات!»

وصوت آخر يصيح: «يا إلهي.. لقد أغمي عليها!»

أبعد (مراد) ابنته، لينظر بلهفة وقلق لـ (ديالا)، التي هرع إليها عريسها لينتشلها من الأرض، عندما دفعه (مراد) بكتف قانوني قائلًا: «عفوًا يا

صديقي.. أعتقد أنني وصلت في الوقت المناسب.. وما زلتُ رسميًا زوجًا لهذه السيدة»

ثم رفعها عن الأرض، وسط هالة كبيرة من التول الأبيض والعيون الذاهلة والحواجب المرفوعة، واتخذ طريقه عائدًا إلى داخل الفيلا.

وضعها برفق على الأريكة في غرفة المعيشة. لم يكد يلمسها حتى جاءه صوت من الخلف: «ارفع يدك عنها!»

التفت لصاحبة الصوت الرفيع، وضاقت عيناه عندما لمح الغضب المستعر في تلك العيون الزرقاء الصغيرة، وهي تتقدم لتدفعه: «ألا يكفي ما فعلته حتى الآن؟ ابتعد عنها! قلت لك ابتعد!»

تراجع مذهولًا من الهجوم غير المتوقع، ليجد ضيوف الحفل يتوافدون إلى داخل المكان، يتابعون بلهفة تطورات الأحداث، ومن بينهم العريس الذي لم يرفع عينيه المذهولتين عن (مراد)، وكأنه ما يزال يحاول التأكيد لنفسه أنه لا يحلم.

رفعت الفتاة رأسها تحدق به بحدة، ثم بالضيوف، وصرخت بصوتها الحاد المرتفع: «فيم وجودكم!؟ لقد ألغي الزفاف. ماذا تنتظرون!؟ هيا عودوا لبيوتكم! لقد حصلتم على أكثر مما دفعتم وسيتم إعادة هداياكم في وقت لاحق. هيا عودوا لبيوتكم!»

لم تبال بالهمهمات والنظرات الحادة، وهي تعود لصديقتها تناديها بنبرة متلطفة، وتربت على يديها: «(دِي).. عزيزتي (دِي).. أفيقي رجاءً.. (دِي)..»

فوجئ (مراد) بابنته الصغيرة تخترق غابة سيقانهم، وتقترب تنظر له بدموع محتبسة: «بابا.. هل ماتت ماما مثلما مت أنت من قبل؟؟»

رفعها بسهولة نظرا لجسدها الصغير الهش، رغم أنها تجاوزت السابعة من عمرها، وأجاب: «ماما ستكون بخير.. هل تصدقين كلامي؟»

أومأت الفتاة بصمت، وهي تتطلع لأمها التي بدأت ترمش بعينيها. هتف صوت مرتبك من الخلف: «لقد بدأت تفيق.. سأقوم بإحضار كوب من الماء»

حدجه (مراد) بنظرة حارقة، عندما عاد يناول الفتاة كوب الماء، فتناولته بامتنان: «شكرا لك (غسان)»

التفت له (مراد) متسائلًا بحنق: «ما لا أفهمه حتى الآن هو سبب إصرارَك على التواجد رغم كل شيء.. ألا تشعر حتى ولو بالقليل من الخجل!؟»

عقد (غسان) ذراعيه بتحدي، فظهر رغم حجمه الأصغر أكثر ثقة بالنفس ـ «كلا يا (مراد) بك.. أنا لست خجلًا أبدًا.. على عكس اعتقادك نحن لم نقم بخيانتك. أنا و(ديالا) قررنا الزواج لأسباب كثيرة منطقية.. لقد أبلغتنا السفارة بموتك وإلا....

ـ «هل تسلمتم أي أوراق من السفارة تفيد هذا الادعاء؟؟»

جال (غسان) بحيرة بين (مراد) و(ديالا) التي بدأت تفيق. هزت رأسها ودموعها تسيل بقوة على وجنتيها.

ـ «نعم.. لقد تسلمت الأوراق بنفسي.. وإلا كيف أمكنهم إعطائي الموافقة على الزواج!؟»

تهربت من نظرات (مراد) الحادة، ونادتها صديقتها: « (ديالا) حبيبتي.. لا تسمحي له أن يُشعِرك بالذنب! أنتِ لم تخطئي بشيء. كنتِ ستتزوجين مثل أي أرملة ترغب بالحفاظ على نفسها وابنتها الصغيرة في مجتمع غريب»

صاح غسان: «هذا بالإضافة أنها كانت تنوي طلب الطلاق عند عودته من رحلته لمصر»

بحدة شديدة نظر له (مراد)، وتمتم من بين شفتيه: «انتهى وقتك هنا يا سيد (غسان).. وأنت أيتها السيدة...

قاطعته بنبرة ساخرة: «ماذا؟ هل نسيت اسمي أيها السيد العائد من الموت؟ أم أن السنة التي غبتها عنا أنستك (جمان) أخت زوجتك!؟"

أطرق (مراد) لحظة، ثم رفع رأسه ليدفع بابنته لأحضان خالتها: «حسنًا يا خالتها.. اصحبي الصغيرة لغرفتها وهدئي من روعها. وأنت.. غادر بيتي إلى إشعار غير مسمى.. لا أرغب حتى برؤية طيفك في أي مكان بقربي.. لو كنت تعرف صالحك»

اشتدت قبضتا (غسان) على جانبيه: «أنت لن تستطيع إبعادي عنها! ما حدث بيني وبين (ديالا) منذ ابتعادك لم تقترب أنت منه طوال ثمان سنوات زواج منها.. ولن تستطيع حتى بعودتك من الموت أن...

صرخة أوقفته عن الاسترسال: «غسان! هذا يكفي!»

ذهب بنظراته الحائرة إلى (ديالا)، التي كانت تحاول الوقوف بمساعدة أختها، وأخذت تحاول انتزاع خمارها بعصبية عن شعرها، الذي تشعث من محاولات النزع بقوة، حتى أردفت عندما نجحت أخيرًا: «هذا يكفي. أنا أوافق (مراد).. نحن بحاجة لبعض الوقت لنرتب أوراقنا من جديد»

مد يديه بتضرع: «ولكن (دِي)... أنتِ لا تحبينه.... أنتِ أخبرتني...

صرخت وهي تدب في الأرض: «(غسان)! سأتصل بك قريبًا.. من فضلك»

تنهد بتراجع: «حسنًا كما تشائين، ولكن ليكن في معلوم الجميع هنا، أنا لن أتنازل عنكِ أبدًا.. لن أتخلى عنكِ مثلما فعل هو.. أنت لي يا (ديالا).. لي وحدي»

بابتسامة أشبه بالعبوس صفق مراد: «رائع! عرض ممتاز.. تستحق جائزة أفضل ممثل»

اقترب منه (غسان) بملامح عابسة، وتمتم بحقد دفين قبل أن يغادر المكان تتبعه عواصفه: «أنت لم تتغير أبدًا.. ما زلتَ ذلك الرجل البارد الذي ضيّع امرأته وابنته بدون أن يرف له جفن. ولكني لن أقف مكتوف اليدين لأراك

تستمر في تدميرهم كما فعلت في الماضي.. أنا سأمنعك يا (مراد)، ولو اضطررت لاستخدام القوة»

* * * * *

كان وجهه عبارة عن ملامح عادية.. لا تُقرأ.. لا تدل عن خفايا نفسه إن كان غاضبًا أو متعصبًا، أو أي مشاعر تعرف منها ما يفكر فيه كما اعتادت معه في الماضي. الآن لا أي شيء يخبرها أين تقف، وعلى أي أرض.

وحدهما في غرفة المعيشة لأول مرة منذ سنة كاملة.. منذ قرر أن يتركها ويسافر لبلده (مصر).. منذ أن أعطاها إنذارًا أن تلحق به أو تظل معلقة إلى الأبد بمسمى زوجته.. ومنذ أن هددها أن يتزوج غيرها ثلاث نساء كما شرع له دينه إن لم تطعه وتسافر معه.

كانت تتفرس في ملامحه.. في أدق تفاصيله. لأيام وشهور كل ليلة حاولت إقناع نفسها أنها لن تراه مرة أخرى.. أنه ذهب ولن يعود.. الموتى لا يعودون. بألم بالغ تذكرت إحساسها عندما تلقت خبر موته على إثر حادث أليم أودى بحياته.. مجرد حروف باردة في ورقة صغيرة حملت أحزانًا بأحجام الجبال، جثمت على صدرها حتى كادت أن تُفقدها النطق. وما زالت تنظر له ولا تصدق. حلقها تيبّس من جفافه وهي تحاول الكلام بصوت خافت متقطع: «أنت... أنت على قيد الحياة!»

بإجابة مقتضبة وشبه إيماءة: «نعم»

ترنحت فأسرع بالإمساك بها، ولكنها لوحت بيدها احتجاجًا على اقترابه: «لا تقترب مني!»

جلست على الأريكة، بينما اتخذ المقعد المقابل لها، يبادلها التفرس، عندما صاحت: « ولكن... كيف!!؟ لقد أخبروني أنك... أنك...»

قلب شفتيه مضجعًا للخلف: «لا أعلم بماذا أخبروكِ.. أو لماذا.. ولكن كما ترين ها أنا ذا أمامك. ربما عندما أصبت بذلك الحادث تجاوزتُ الموت بصعوبة»

غامت عيناه بذكريات مظلمة. كادت تقسم أنه عبر فعلًا بوابة الموت في تلك اللحظة، وعاد ليرفع رأسه ويشملها بنظرات حادة: «لم تحتملي لقب أرملة مدة طويلة.. متى وصلك خبر وفاتي؟؟»

ردت بملامح متجهمة: «منذ خمسة أشهر»

ـ «خمسة أشهر!! يا لها من فترة طويلة تقضيها الزوجة في حداد! وكذلك الصديق المخلص (غسان).. لم يفكر طويلًا ليحل محلي في حياة زوجتي وفي... فراشها»

صرت على أسنانها: «لن أسمح لك بإهانتي!»

اتسعت شفتاه بابتسامة مشوهة ساخرة: «اهدئي يا مدام.. لا داعي لكل هذه العصبية»

تابعت وكأنه لم يقاطعها: «كما لن أسمح لك أن تُخرسني بأي وسيلة من وسائلك المعتادة، التي تزيد من إحساسك بالتفوق الذكوري»

ظهر متأثرًا بالدموع التي ترقرقت في عينيها شديدتي الصفاء بلون العسل، وأجلى صوته متابعًا: «سنرجئ الحديث في هذه الأمور لما بعد.. الآن أرغب أن أستريح في غرفتي»

نظرت له بتفحص كأنه مخلوق فضائي بزوائد لزجة: «هكذا بكل بساطة!؟»

ـ «كلا.. في الواقع أنا أستحق ترحيبًا أكثر بكثير مما أظهرتِ حتى الآن.. باعتباري زوجك العائد بعد فترة غياب طويلة»

أمسك بيدها التي كانت لا تزال تلوح بها باعتراض، ثم جذبها فجأة لتصطدم بجذعه القوي. اتسعت عيناها بذهول وهو يقرب وجهه منها ليظهر بوضوح شديد تباين لون بشرتها الشاحبة مع سماره الحنطي. لم يبال بقلبها الذي أخذ يدق بجوار صدره بقوة ارتجت لها أضلاعه. محاولتها للفكاك كانت شبه مستحيلة. انحنى أكثر ليتشمم عطر شعرها المماثل للون عينيها رغم خصلاته المتنافرة بعد الطريقة التي خلعت بها خمارها. تخللت رائحة عطرها رئتيه فتنهد، وهو يهمس جوار أذنها: «ألم تشتاقي لي؟»

همت بالاعتراض من جديد، ولكنه ضغط بذراعه على خصرها، فألجم لسانها متمتمًا: «لا تكذبي!»

قبضته حول خصرها كانت خفيفة، ومع هذا كانت تستشعر قوته الرجولية. أشبعها هذا الإحساس بالخوف. كانت قريبة للغاية منه حتى أنها كادت تحترق من حرارة جسده.. لابد أنه شعر بردة فعلها لأن ابتسامته اتسعت بانتصار، ومد يده ليعيد خصلة من شعرها برقة جناح فراشة خلف أذنها، ثم أبعدها عنه مسافة نصف ذراع فقط ليتعمق في عينيها الغائمتين بالدموع مردفًا: «هل لمسك؟؟»

رغم كل اعتراضاتها على تدخله، وعلى وجوده، وعلى هذا السؤال بالذات، ولكنها وجدت نفسها كالمسحورة تهز رأسها بالنفي.

ارتاحت أساريره عندما حصل على جواب السؤال الذي كان يسمم أفكاره من لحظة دخوله الحديقة ورؤية زوجته تتزوج من رجل آخر. وعلى عكس الراحة التي بدت عليه، اشتدت تعابيرها وهي تنفض نفسها عنه، وتبتعد خطوة للخلف، صارخة وهي تدق قدميها في الأرض:

«لو صور لك عقلك المريض للحظة واحدة أننا سنعود لنكمل حياتنا من حيث توقفت، أخشى أني أحمل لك خبراَ صادمًا.. أنت مصاب بوهم كبير يا (مراد) بك»

وضع يديه في جيبي بنطاله بعد تنهيدة حزينة، قائلًا بنبرة أكثر تأثراَ: «في الواقع أ نا مصاب بشيء آخر يا عزيزتي.. لم أنجُ تمامًا من الحادث.. أنا...»

وضعت يدها على فمها لتمنع شهقة، متراجعة عنه وكأنها لا ترغب بسماع ما سيقول، ورغم ذلك اندفعت الكلمات على لسانه: «الموت الذي نجوت منه... ما يزال يحاصرني مع كل نفس من أنفاسي»

بحلق جاف سألت: «وكيف هذا؟؟»

بعد تنهيدة أخرى خرجت حارقة من أعماقه: «الحادث تسبب بدخول شظية في رأسي.. استقرت في مكان خطير في المخ.. لم يتمكن الأطباء من انتزاعها.. تركوها وتركوني مهددًا في أي لحظة لو تحركت في مكانها ستقتلني فورًا»

هزت رأسها قائلة بدون وعي، والدموع تسيل بصمت على وجنتيها مغمسة بكحلها السائل: «أنت تكذب.. أنت... أنت لا يمكن أن...»

زفر بسخرية: «لا يمكن أن ماذا؟ أن أموت!؟ منذ أقل من ساعة واحدة كنت تستعدين للزواج برجل آخر بعد تصديقك بموتي»

ـ «لا أعني هذا.. أعني أنك أمامي بكامل صحتك وعافيتك. تبدو متمتعًا بالعافية ولا تبدو كمن...»

ـ «على وشك الموت.. هذا قصدك»

ـ «نعم»

ـ «الشظية لا تسبب لي الألم.. ولكنها تسبب لي النسيان.. أي أنني أتذكر فقط الأمور الأساسية في حياتي.. أنتِ، ابنتنا، المكان الذي أعيش فيه.. ولكن التفاصيل...»

همهمت متذكرة: «لذلك لم تتذكر (جمان) أختي»

أطرق رأسه بتنهيدة أخرى: «نعم.. ولن أتذكر الكثير من الوجوه والأماكن، وأشياء كثيرة كنت أفعلها.. كما أنني لا أذكر أبدًا أنني تركتك، ولا أتذكر أنكِ طلبتِ مني الطلاق»

شهقت مرة أخرى بالمزيد من الدموع وهي تصيح: «لا! مستحيل! لا يمكن!
»

أمسك بيديها بصوت حنون: «لا أتذكر أنني أذيتك أبدًا.. أتذكر فقط أنني أحببتك.. عشقتك.. وتزوجتك وأنجبنا ابنتنا»

همهمت بالرغم من دموعها: «لم تسر الأمور بهذا الترتيب تمامًا.. ولكن باختصار، هذا ما حدث»

تجهم لحظة وأصابعه تشد على يديها بدون وعي: «أتعني أن (أماليا) جاءت قبل الزواج؟»

شردت في ملامحه العابسة: «أنت لا تتذكر حقًا!؟ (مراد).. أنت تؤلمني!»

هتف من جديد دون أن يخفف من ضغط أصابعه: «أخبريني! هل جاءت (أماليا) قبل الزواج؟؟»

تأوهت وهي تجيبه: «لا.. (أماليا) جاءت بعد الزواج.. طفلي الذي حملت به قبل الزواج أجهض قبل أن نتزوج»

أخرج زفرة حانقة وهو يحرر أصابعها من يديه: «أعتذر.. كل ما أطلبه منك أن تمنحيني بعض الوقت حتى تستقر الأوضاع. ولو ظللتِ على رأيك في طلب الطلاق، سألبي رغبتك»

تساءلت بدهشة مقرونة بنبرة تردد: «أنت... أنت توافق!!؟»

ـ «نعم (ديالا).. لو ظلت هذه رغبتك، سأنفذها لك. بشرط.. أن نتفق على حضانة (أماليا).. ولكن امنحيني بعض الوقت.. اشتقت لك واشتقت لابنتنا. اقترابي من الموت جعلني أشعر أنني لا أستطيع الابتعاد عنكما أبدًا.. هل ستمنحينني هذه الفرصة؟؟»

* * * * *

(٣)

- « (إيمي).. (إيمي).. أين أنتِ؟؟ (إيـــــ......

توقفت عن الحديث عندما فوجئت بابنتها تقف في الرواق أمام أحد الغرف، تضع إصبعها أمام فمها، ممسكة بيدها الأخرى مقبض الباب الموارب: «ششششش»

تلفتت (ديالا) حولها بارتياب، ثم ركعت أمام ابنتها تسألها بصوت خافت: «ماذا يحدث هنا؟ هل هاجمنا الفضائيون؟»

هزت الصغيرة رأسها، لتهتز خصلات شعرها الشديدة السواد، والتي تجعلها أقرب الشبه لأبيها منها لأمها، قائلة بصوت خافت كنبرة أمها: «لا.. ليس بعد.. ولكن دادي ما يزال نائمًا، وأنت تصدرين أصواتًا مزعجة»

بصوت حاد تساءلت (ديالا): «أنا؟»

ثم أردفت بصوت خافت عندما حذرتها الصغيرة بتهديد: «عفوًا.. أعني: أنا صوتي مزعج يا (إيمي)!؟»

هزت (إيمي) رأسها بشفاه مضمومة، ثم أعادت النظر من خلال الباب الموارب، وعادت تنظر لأمها: «سوف توقظينه بصوتك، وتسببين له الإزعاج. وربما يقرر أن يتركنا مرة أخرى»

شعرت (ديالا) بجفاف كل نقطة دم في شرايينها، ثم سألت طفلتها: «هل سيضايقك إن ذهب وتركنا مرة أخرى.. في المرة الأولى كنتِ أكثر من مُرحِّبة»

ـ «نعم ماما.. دادي قبل أن يسافر لم أحبه كثيراً؛ لذلك لم أمانع حقًا أن يذهب. ولكن منذ أن عاد من أسبوع وأنا أشعر أنه يحبني أكثر من السابق»

سألتها باستنكار لم يخل من التعجب: «لقد أخبرتِني أنكِ تحبين (غسان) أيضًا.. لقد حيرتِني معك!»

ـ «وأنا أيضًا حائرة.. ولكن ما أعرفه أنني أحب دادي هذا ولا أرغب أن يتركنا. كوني لطيفة معه يا ماما. أرجوكِ.. أرجوكِ.. وإذا عاد لتصرفاته الأولى سنطرده ونعيد (غسان).. ما رأيك بهذا الاتفاق؟»

سمحت (ديالا) لنفسها أن تختلس نظرة من خلال الباب الموارب لذلك الرجل السابح في نوم عميق، نصف عارٍ كما هو ظاهر من الغطاء الذي يلتحف به. ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشيح بنظراتها عنه، وتغلق الباب بهدوء، لتخبر ابنتها بقرارها: «حسنًا.. سأكون لطيفة معه.. فقط من أجلك أنتِ يا (أماليا) الحبيبة. ولكنني لن أمنحه إلا فرصة واحدة فقط»

صافحتها (أماليا) بحماس: «اتفقنا!»

ـ «هيا لنتناول طعام الإفطار يا آنسة.. باص المدرسة على وشك الوصول»

ـ "آه ماما.. مدرسة اليوم!!؟»

هزت (ديالا) رأسها بحزم: «نعم.. لقد غبتِ أسبوعًا كاملًا، والآنسة (سميث) أرسلت لي إنذارًا. دادي لن يذهب لأي مكان.. عندما تعودين ستجدينه في البيت»

- «وعد ماما؟؟»

- «وعد»

ركضت الفتاة على أجنحة السعادة طائرة، ثم توقفت فجأة. قطبت الأم حاجبيها عندما عادت (أماليا) بظهرها على وجهها علامات التكدر والعبوس: «ماذا وراؤك هذه المرة؟؟»

ترددت (أماليا)، قبل أن تستجدي شجاعتها وتقول بكلمات سريعة: «ماما... متى ستعيدين بابا لغرفتك؟؟»

احمرت وجنتي الأم واحترقتا من شدة الغضب: «ما هذا السؤال يا (إيمي)!؟ »

أطرقت الصغيرة رأسها، وتمتمت بخجل: «عفوًا ماما.. ولكنني لن أشعر أن كل الأوضاع على ما يرام إلا عندما يعود بابا في مكانه الطبيعي.. غرفة الضيوف هذه ليست غرفته.. أليس كذلك ماما؟؟»

أخرجت (ديالا) زفرة طويلة: «أحيانًا أندم على إصراري على تربيتك تربية إنجليزية متفتحة؛ لو كنتِ تربيتِ على طريقتنا التي تربينا عليها من صغرنا كعرب، ما تجرأت وفاتحتني في هذا الموضوع. رغم كل شيء مازالت تربيتي

تحوز على الجانب الأكبر من تعقلي، وأرفض المناقشة معك في هذا الموضوع. علاقتي أنا وبابا تتعلق بي أنا وبابا فقط.. وأنا متأكدة أننا سنتوصل سوياً لما فيه مصلحتك.. وسعادتك»

ركضت الصغيرة الخطوات الفاصلة بينها وبين أمها، وقفزت في أحضانها تعانقها بقوة وتقبل وجنتها: «أحبك كثيراَ يا مامي. أنا جائعة جدًا.. أين فطوري؟؟»

راقبت ابنتها من النافذة الصغيرة في المطبخ، تركض عبر المرج الأخضر حتى وصلت لباص المدرسة الذي ينتظرها. صعدت درجاته القليلة، ثم التفتت لها تلوح بيدها. بادلتها التلويح مع قبلة طائرة في الهواء. ظلت تراقب الباص حتى اختفى في الأفق.

ـ «صباح الخير»

التفتت للرجل الذي هيمن على مطبخها بحضوره الطاغي. تسارعت أنفاسها لسبب لا تعرفه؛ فهو زوجها منذ ثماني سنوات، ولكنه أبدًا لم يكن تأثيره عليها بهذه الكيفية!

لوح بوجهها: «أقول صباح الخير»

ـ «أه.. عفواً.. صباح الخير»

ردد بلغته العربية: «اتكلمي معايا بالعربي (ديالا)»

أصرت بعناد: «هذا لن يحدث! وسبق وتحدثنا في هذا الموضوع من قبل. لا أريد أن تسمع ابنتي أو تتعلم هذه اللغة أبدًا!»

رفع أحد حاجبيه مستهجنًا، مصرَا على الرد بالعربية: «ليه!؟ أنا مصري وإنتي شامية.. غريب إصرارك تكون بنتنا إنجليزية!»

ـ «هذا كيلا تقاسي ابنتنا ما قاسيناه في الغربة حتى وصلنا لما وصلنا إليه، وكيلا توصم في كل مرحلة من مراحل حياتها أنها عربية إرهابية»

مط شفتيه بعد أن جلس أمام مائدة الإفطار، ومدد ساقيه الطويلتان أسفل المائدة: «أعتقد إنك على وشك أن تطلبي تغيير اسمها في شهادة الميلاد؛ لأن اسمها (أماليا مراد علم الدين الأسيوطي) اسم عربي مائة بالمائة»

أخرجت زفرة ضيق: «عندما تصل للسن المناسب يمكنها أن تفعل هذا بنفسها، لو وجدت أن اسمها سيعوق اندماجها في المجتمع»

حدق بها لبعض الوقت بنظرات غامضة. استعدت بالتسلح اللازم لرد هجومه المعتاد، ولكنها فوجئت عندما اتسعت ابتسامته الغائبة: «معاكي حق.. (أماليا) لازم تمارس كل حقوقها وحريتها زيها زي أي طفل إنجليزي. أنا جعان.. هتأكّليني ولا هتموتيني من الجوع؟»

اعتدلت واقفة باستغراب شديد، ثم هزت رأسها بتردد وهي تتحرك كالآلة لإعداد الطعام. قبل أن تعود لتلتفت له بتساؤل: «كنت متعود تعمل الفطور لحالك.. ولا هايدي العادة كمان نسيتها؟؟»

استغربت عندما أطال التحديق فيها مع صمت مريب، فاستحثته: «شووو؟؟»

فجأة انطلق مقهقهًا مما أثار حنقها، وكما بدأ الضحك فجأة سكت فجأة، يتأملها بنظرات مفعمة بالمشاعر، التي أربكتها وحركت داخلها أصنامًا بدأت روح الحياة تدب فيها. صاح باللهجة المصرية: «من زمان مسمعتكيش بتتكلمي باللهجة الشامي.. حلوة أوي يا (دِي)»

اتسعت عيناها، وهمت بالاعتراض على كونها نطقت بلهجتها الشامية، ثم تذكرت أنها فعلتها دون أن تشعر. صرخت وهي تضرب بقدميها في الأرض: «كل هذا بسببك أنت.. أنت الذي بدأ بالتحدث بالعربية! أحذرك يا (مراد).. لو تحدثت مع (إيمي) بها لن أسامحك أبدًا!»

راقبها بنظرات قاسية تغادر المطبخ، وكل شياطينها الغاضبة تتبعها.

* * * * *

في المساء، كان يراقب (أماليا)، وهي تلهو بلعبتها، بنظرات غامضة ولكن بارتياح عام، واستمتاع ظهر جليًا في ملامحه. كانت (ديالا) تسترق النظر له بدورها دون أن يشعر، بينما ادعت الانشغال بمشاهدة البرنامج التليفزيوني، حتى أخرجها رنين تليفونها المحمول من ادعائها. انتبه (مراد) لحديثها التليفوني، والذي لم يرتح لمحتواه من ارتباكها الواضح، ومحاولتها التكلم

بغموض، ثم أغلقت الخط وهي تسترق له النظرات. وأخيراً نهضت تنادي (أماليا): «هيا (إيمي).. موعد نومك حبيبتي.. قولي لدادي تصبح على خير» تذمرت الصغيرة، وحاولت الاستنجاد بأبيها، الذي عانقها بقوة احتوى فيها جسدها الصغير قائلًا: «لابد أن نسمع كلام ماما.. ومواعيد النوم على حد ما أذكر لا فصال فيها.. أعتقد أننا هدمنا ما يكفي من قواعد في الأيام السابقة.. لابد أن ماما غاضبة كثيراً»

رضخت الصغيرة لكلمات والدها: «حسنًا بابا.. على شرط.. أن تأتي لتحكي لي حكاية ما قبل النوم»

تذمرت (ديالا) في الخلف: « (إيمي).. تعرفين أن بابا لا يعرف أي قصص خيالية. سبق وأن أخبرتك بهذه المعلومة.. لماذا تكررين طلبك في كل مرة؟»

ظهرت خيبة الأمل عل الصغيرة، مما دفعه ليهتف: «ورغم ذلك، أعتقد أنني لا أحب أن أخيب ظن (أملي) الصغيرة.. عندما كنت في مصر، اعتادت الممرضات أن يقصصن لي حكايات أثناء مرضي لتسليتي»

زفرت (ديالا) بسخرية: «أراهن أنها كانت لتسليتك»

شهقت (أماليا) بسعادة: «(دادي)! أتعني أنك ستحكي لي حكاية حقًا!؟؟»

ـ «نعم.. استعدي للنوم، وأنا سألحق بك فوراً»

تحركت الفتاة بحماس تنادي على أمها، التي ظلت واقفة تحدق في زوجها باستغراب: «فاقد بعض ذاكرتك أم لا، ولكنك لم تجد وقتًا أبدًا من قبل لتحكي لابنتك قصصًا. ما الذي تهدف من وراء كل تلك التصرفات؟»

أشار بإصبعه خلفها: «أماليا تناديك»

أخرجت زفرة حانقة، ثم أسرعت خلف ابنتها.

اطمأنت على وضعها في الفراش. رغم تجاوز عمر الصغيرة السنوات السبع، ما تزال لا تطمئن إلا إذا وضعتها في الفراش بنفسها. كانت تبحث عن عذر مناسب لسؤال الصغيرة عن والدها، عندما فُتح الباب فجأة، وشهقت الفتاة بعينين تبرقان سعادة: «دادي! لقد وفيت بوعدك!»

أزاح (ديالا)، التي كانت لا تزال تعترض طريقه وكأنها لا تصدق وجوده، ولا تلك النظرات الحانية التي تمتلئ بها عيناه، حتى اضجع بجسده الضخم على جانب فراش ابنته، وبدأ بصوته الرخيم يحكي لها حكاية:

«في الحقيقة يا (إيمي).. هذه الحكاية لا تروى إلا باللغة العربية.. ولكن تبعًا لتعليمات ماما...»

صاحت الفتاة بلغة عربية مكسرة: «ولكنني.. آوز أسمأ الحكاية.. بالأربي دادي»

ارتفعت عيناه لشهقة (ديالا)، التي صاحت في شبه صراخ: «من أين تعلمت هذه اللغة؟ ومتى؟ من علمك؟؟»

اختبأت الصغيرة محتمية بوالدها، قائلة بنبرة مترددة: "صديقتي (ماجدة) في المدرسة.. هي من أصل مغربي، وأمها تسمح لها بالتحدث بالعربية»

ـ «ولكن... ولكن...»

رفع (مراد) يده ليمنعها: «هذا يكفي يا (دِي).. سنرى حلًا لهذه المشكلة من وجهة نظرك فيما بعد.. والآن هل تسمحي؟»

* * * * *

لم تصدق أنه أخرجها من غرفة ابنتها. لم تصدق أنها خرجت بكل بساطة. منذ متى يهتم بابنته!؟ منذ متى يملك هذه السلطة!؟ منذ متى تطيعه بدون نقاش!؟

والإجابة كانت واضحة وضوح الشمس: فقط منذ عودته.

ـ «دادي.. ألست غاضبَا مني مثل مامي؟»

ـ «ولماذا أغضب منك!؟»

ـ «لأنني تحدثت بالأربية.. وماما حذرتني من...

قاطعها: «أولًا: أنا لست غاضبًا. ثانيًا: سأحاول إقناع ماما. ثالثًا: أترغبين بسماع الحكاية أم لا؟»

ـ «بالأربية؟»

ـ «باللهجة المصرية»

صرخت الفتاة بحماس، وهي تستمع لوالدها: «كان ياما كان.. يا سادة يا كرام.. وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام.. قولي ورايا يا (أملي)..»

رددت الفتاة: «عليه الصلاة والسلام»

*****

كانت بانتظاره عندما خرج من الغرفة على أطراف أصابعه، بعد أن نامت طفلتهما أخيرًا. أمسك مقبض الباب برفق كي لا يصدر صوتًا يزعجها.

ـ «هل تنتظريني منذ وقت طويل؟؟»

ـ «لقد تأخرت!»

ـ «العفريتة الصغيرة لم تستسلم إلى النوم إلا بعد أن أنهيت الحكاية كلها»

ـ «أنت...

قاطعها واضعًا إصبعه على فمه: «ششششش.. بغرفة المعيشة.. لا نرغب بإزعاجها»

عضت على شفتيها من الغيظ، وهي تتقدمه بعدما رفض أن يسبقها قائلًا بتهكم: «السيدات أولًا»

حاولت الهجوم حال وصولهما لغرفة المعيشة، ولكنه بادرها بنبرة صارمة: «أنا لم أسع لهذا.. الطبيعة تأخذ مجراها في النهاية»

صاحت باتهام: «أعرف فيم تفكر.. أعرف أنك ترغب بأخذها لبلدك المتخلف؛ لتعيش هناك حياة متخلفة، وتتزوج رجلاً كل غايته في الحياة أن يكمل دينه بزواجه من أربع نساء»

قاطعها بهدوء حازم: «أنا رجل مصري الجنسية مسلم الديانة، ولم أفكر بالزواج من غيرك»

ـ «هذا لأنك تعلمت هنا، وأصبحت طباعك أشبه بطباع الغرب»

لاحظ اشمئزازها من كلماتها، فتحدث بلهجته المصرية: «رغم كده مقدرتش أنال إعجابك حتى بعد مرور ثمان سنوات على زواجنا»

هتفت بصبر من بين أسنانها: «لو سمحت يا (مراد).. باللغة الإنجليزية»

أخرج تنهيدة طويلة، ثم أومأ برأسه موافقًا: «كما تشائين.. جاءك اتصال منذ قليل.. ممن؟؟»

شملته بنظرة هازئة: «بأي حق تسألني!؟»

ـ «حق الزوج سيدتي.. يبدو أنكِ ما زلتِ تنسين وجودي حتى بعد عودتي منذ ما يزيد عن السبعة أيام»

دارت ارتباكها: «أنت فقدت حقك منذ تركتنا وسافرت.. وجودك في هذا البيت الآن...

أكمل كلامها: «لأننا نحاول رأب الصدع في علاقتنا؛ من أجل ابنتنا (أماليا) بالطبع.. أليس كذلك؟ هذا ما نحاول فعله يا (ديالا).. ويبدو أننا لا نحرز أي تقدم»

اندفعت تتهمه بعصبية: «والفضل لك طبعًا؛ فأنت لا تدخر وسعًا لتقلل من شأني في كل مناسبة»

رد بصبر: «هذه أوهام في رأسك فقط.. أو أعذار تحاولين بها أن تصدقي نفسك لأعود متهمًا بكل الأشياء التي تتهميني بها منذ عودتي. وافقت أن نفتح صفحة جديدة، ولكنك ما زلتِ تعيشين على أمل فشل علاقتنا؛ لتعودي لحبيبك (غسان). ولا تهيني نفسك وذكائي بمحاولة الإنكار»

عقدت ذراعيها على صدرها: «لن أفعل.. لقد أحببت (غسان) أكثر بكثير مما أحببتك يـومًا»

اشتدت عروقه ونفرت، هاتفًا بصرير من بين أسنانه: «إنتي واعية للتخاريف اللي بتقوليها!؟»

* * * * *

(٤)

وقفت تتحداه دون أن تلين: «أنا لا أخافك يا (مراد)، ولا أهتم لمشاعرك. ليس جبروتًا من جانبي أو وقاحة؛ بل لأنني تتلمذت على يدي خير معلم. لقد تجاهلت مشاعري لسنوات وأنت تتمرغ في علاقاتك المحرمة، في ذات الوقت الذي كنت لا أزال آمل أن يُصلح حالك وتعود عن طريقك، ولكنك في نهاية المطاف بدلًا من أن تعود لي ولابنتك، اخترعت رواية العودة للوطن، والحنين، واستحالة أن تتربى ابنتنا في مجتمع غربي، وكل هذه الترهات التي ذكرتها. وبعدها سافرت وتركتنا بتهديدك القميء. وبعد كل هذا ماذا تتوقع مني؟ أن أستقبلك بالعناق، ومشاعر الشفقة نحوك تغسلني من كل كرهي لشخصك وما كنت عليه!؟»

تنهد بانزعاج: «كلا.. ولكنني لم أتوقع أن أعود لأجدك تلقين بنفسك في أحضان رجل آخر، وابنتي على وشك أن تدعو رجل آخر بـ (أبـي)»

ـ «هذا الرجل الآخر هو الذي احتواني بعد ذهابك.. هو الذي حافظ على ابنتك.. هو الذي قدم لي ما لم تقدمه لي أبدًا.. الشعور بالحماية والأمان»

رفع أحد حاجبيه متهكمًا: «وماذا قدم هذا الصديق الوفي أيضًا؟»

لوحت بإصبعها في وجهه بحدة: «بالرغم من أفكارك القذرة، (غسان) يُكِنُّ لي احترامًا أكثر بكثير مما فعلتَ يومًا»

هتف متهكمًا: «على الرغم من المجتمع المتحرر الذي تفضلين التمرغ في مدنيته»

ـ « (مراد).. أنت تعلم جيدًا أنني...

قاطعها بحدة: «أنكِ ماذا!؟ شريفة وعفيفة؟ بدليل ما حدث بيننا قبل أن يربطنا عقد زواج؟»

شهقت متراجعة من هول ذهولها، صائحة بصوت متقطع:«أنت... أنت..»

أكمل هازئًا: «لا يمكنك الإنكار. لستُ أدري أين كان عقلي عندما تركت لك ابنتي تعيش مع مُثُلك الفاسدة.. تستقي منك كل مبادئها في الحياة، وأنت امرأة فاقدة لكل المبادئ التي تربينا عليها كعرب»

اعتصرت قبضتيها على جانبيها، متمتمة بنبرة مغتصبة وهي تمنع بصعوبة دموعها من السقوط: «هذا يجعل منا اثنين يا (مراد) بك.. أنت أيضًا رجل بلا مبادئ.. أنت كل ما تتهمني به وأكثر.. ولا يمكن أن تنسى أو تدعي نسيان علاقاتك الغرامية التي بدأت بعد أسبوع واحد فقط من زواجنا. لو كنتُ نجحتُ في محاولتي أن أصبح مواطنة من هذه البلد فعلًا، لما أبقيتك زوجًا لي لحظة واحدة بعد تأكدي من خيانتك»

كتف ذراعيه على صدره العَضِل الكبير، مردفًا باسترخاء:

ـ «لذلك، لم تجدي مشكلة في مجاراتي.. رغم كل شيء نحن في بلد متحرر.. يعطي المرأة حرية مساوية للرجل إن لم تزد عنه»

وكأنها تبصق الكلمات: «فاقد لذاكرتك أم لا، تظل أفكارك قذرة»

أخرج تنهيدة، ووضع يديه في جانبيه قائلًا: «حسنًا.. ما رأيك أن نصل لحل يرضي جميع الأطراف؟»

ـ «وما هو هذا الحل العبقري؟»

هتف ببساطة: «نحصل على الطلاق كما ترغبين، وأحتفظ بحضانة (أماليا).. ويمكنك أن تكملي حياتك بالطريقة التي ترينها مناسبة.. لن أعترض»

هتفت بشبه صراخ: «لن تعترض بطبيعة الحال؛ لأنه لا يحق لك الاعتراض. وابنتي لن تفارقني أبدًا. كما أنها معي أفضل بكثير مما هي معك»

تكلم ببطيء مستفز: «لو أثبتُّ للمحكمة أنكِ أم غير أمينة على ابنتها، ستسلمها لي بكل رحب»

ـ «لو عرفتْ المحكمة أنكَ تنتوي أخذها لبلدك المتخلف، وأنك ستحرمها من جنسيتها الإنجليزية»

شهق بوجه شاحب من الصدمة: «ماذا!!؟ جنسيتها الإنجليزية!!؟ متى حدث هذا؟؟ أنا لا يمكن أن أفعل شيئًا كهذا.. كما أنها لم تولد هنا لتحصل على الجنسية بالتبعية.. أذكر أنكِ ولدتِها في تركيا!»

أومأت بحلق جاف: «نعم.. أنا فعلت هذا في الشهور السابقة. عندما تركتنا وذهبت، خشيت أن تلعب لعبة ما لتأخذها مني، وتولى (غسان) كل الترتيبات، وأصبحت (أماليا) مواطنة إنجليزية. لا يمكنك أن تفعل أي شيء مما تخطط له بدون الرجوع لي أولًا. أنا أمها الوصية الشرعية»

استمر (مراد) بالتحديق في ملامحها الساخرة المنتصرة لثوان طويلة، قبل أن يهز رأسه بصعوبة ويقول بنبرة مهزومة: «تكسبين.. يبدو أنني أبخستك قدرك.. ولكن ليكن في معلوماتك، أنا لن أترك ابنتي مرة أخرى أبدًا.. ولن أطلقك. ومن الأفضل لك أن تبتعدي عن (غسان) هذا؛ كي لا أضطر لأن أتقمص دور الشرقي المتخلف -كما تطلقين عليه- وأغسل شرفي بدمائكما»

غادر غرفة المعيشة أمام نظراتها المذهولة، ولكنها فجأة نادته قبل أن يغادرها تمامًا. عاد بخطواته للخلف يحدجها بنظرة متسائلة. اعتصرت يديها بارتباك شديد، ولم تدر كيف ستطلب منه هذا الطلب الغريب. تمنت لو لم تضعها (أماليا) في هذا الموقف، ولكن من أجل ابنتها هي على استعداد لأن تنام مع الشيطان نفسه. أخرجت زفرة كبيرة من الهواء، واستعدت بشجاعة لتطلب منه أصعب طلب قد تطلبه أي امرأة من رجل، وليس أي رجل بل هو زوجها الذي قررت إسقاطه من حساباتها منذ وقت طويل.

كان ما يزال بانتظارها دون أن يتعجلها؛ فقد ساوره ذلك الإحساس أنها على وشك أن تقلب الأوضاع رأسًا على عقب، بطلبها الذي تتردد في طلبه.

- «هل... أعني... ألم تكتفِ من النوم في غرفة الضيوف؟ ألن تعود لـ... لـــ...غرفتك؟»

وأردفت بنبرة أكثر خفوتًا: «غرفتنا»

جفل من المفاجأة؛ فالطلب كان خارج كل توقعاته لحد كبير. سألها بعد أن تمالك نفسه كي لا تبدو عليه آثار الصدمة: «هل أنت واثقة من طلبك هذا؟»

تجاوزت مرحلة الارتباك لتدخل في حالة من التشوش؛ (مراد) الذي تعرفه كان ليقفز على هذه الفرصة التي أتاحتها له، ولم تستعد لهذا السؤال أبدًا. أجابته بتردد: «في الواقع.. هذا ليس طلبي.. بل هي أمنية ابنتنا التي تظن أن عودتك لغرفتك تعني... حسنًا.. عودة حياتنا لطبيعتها»

هتف ساخرًا: «ودا معناه إنك لسة على عنادك.. زي ما إنتي متغيرتيش؟»

تجاهلت رده بالعربية: «ليس عنادًا يا (مراد) بقدر ما هو أنني أسقطك من حساباتي كزوج. عودتك للغرفة لا تعني استئناف علاقتنا الميتة من الأصل، وعودتك التي تنشدها لن تكون بمثل هذه البساطة»

قلب شفتيه بابتسامة ماكرة: «ولكن... مش مستحيل. على كل حال هستناكي في غرفة الضيوف لحد ما ترسي على بر»

قاطعته بحدة: «إذن ستنتظر للأبد؛ فمن الأفضل أن نحافظ على مظهرنا العام أمام ابنتنا.. على الأقل من أجل صحتها النفسية»

عندما طال صمته، عقدت ذراعيها على صدرها قائلة بارتفاع أحد حاجبيها: «على كل حال... لقد طلبتُ، وأنت رفضت. عندما تسألني (أماليا) في المرة

القادمة، ستتأكد أنني لست السبب في ابتعاد والدها ونومه وحيدًا في غرفة الضيوف»

ـ «وهو دا اللي إنتي بتسعي له من الأول.. مش كده؟ إنك تسحبيها لصفك ويزيد كرهها ليا»

غادر المكان، وتركها في دوامة من التفكير، تسحبها للأعماق في كل مرة تظن أنها على وشك الخروج منها.

أخيرًا، أخرجت الهواء المحتبس في صدرها، بعد أن كادت تختنق به، ودارت الدنيا من فوق رأسها. أمعنت التفكير بشكل منطقي وأدركت أنه على حق. من يكسب (أماليا) لصفه سيستطيع إملاء شروطه على الآخر، وهو لن يستطيع تمثيل دور الأب الطيب الحنون لفترة طويلة؛ ما تلبث أخلاقه الحقيقية أن تظهر وتعود علاقته المتوترة بابنته كما كانت قبل أن يسافر؛ خاصة إذا رأت بعينيها طريقة معاملته لأمها.

أخرجت أنفاسها ببطء على دفعات صغيرة.. كررت الأمر عدة مرات حتى بدأت تستعيد هدوءها، وبخطوات ثابتة وملامح باردة اتجهت لغرفتها. ألقت نظرة سريعة على (أماليا) مستغرقة في سبات عميق. أدارت مقبض الباب لغرفتها بهدوء، ألقت نظرة حذرة لتجده وقد اتخذ مكانه على الفراش. ساقتها ذكرياتها للماضي، عندما كان يسبقها ليقرأ في كتابه المفضل،

قبل أن تلحق به ويقضيان الليلة في حب حتى الصباح. رغم أنها لم تنعم بهذا الوضع كثيراَ، ولكنه ظل محفوراً في ذاكرتها ولم تنسه أبدًا.

خفض رأسه ليختلس لها نظرة من أسفل نظاراته الطبية.. ابتسم بسخرية عندما لاحظ ترددها، ثم تجاهلها وهو يعيد التحديق في كتابه على الضوء الجانبي للفراش.

زفرت بحنق واتجهت للدولاب.. اختارت على مضض إحدى مناماتها المحتشمة وتوجهت للحمام الداخلي. قررت أن تأخذ حمامًا باردًا لعل برودة المياه تطفئ من ثورة غضبها و... لهثت بانفعال وهي تستعيد منظره مسترخيَا تمامًا، مستغرقًا في كتابه الذي يقرأه.

رأته مئات المرات بهذا الشكل، وأكثر، ولكن لم تصدمها رؤيته هكذا أبدًا. لأول مرة تراه بشكل مختلف، تحيطه هالة من الجاذبية. ورغم تجاهله المتعمد لوجودها، فقد رأت في عينيه ومن أسفل نظاراته الطبية نظرة مُرحِّبة جديدة.

هزت رأسها بعنف، وهي تضع نفسها تحت زخات المياه الباردة، تتوالى شهقاتها، تخرج معها كل إحساس اغتالها، مع تصميم ثابت على ألا تعود للوراء أبدًا

*****

خرجت من الحمام بوجه كتمثال شمعي خال من أي ملامح.. رفعت الغطاء من طرفها، واستلقت بأقل ضجة ممكنة، تدعو بصمت ألا يترك كتابه ليلقي عليها نظرة أخرى ساخرة.

لحظات مرت كالدهر حتى بدأت تسترخي، عندما لفحتها من خلف أذنها أنفاس بركانية، وصوت يهمس بحميمية: «تصبحي على خير يا... حبيبتي» وضاعت كل أمالها في ليلة نوم هادئة. في كل لحظة كانت تتوقع انقضاضه عليها، كما كان يفعل دائمًا ويفرض عليها نفسه بطرق تشمئز حتى من مجرد تذكرها. ولكن ما خيب آمالها فعلًا أنها تمنت لو يفعل!

هل كان إحساسها به في الماضي من صنع مخيلتها؟؟ وعندما شفيت من وجوده لشهور ثم اعتقدت أنه ميت.. هل تغيرت؟؟ هل تشتاق لزوجها فعلًا؟؟

لم تستطع أن تحتمل هذا الإحساس الجديد؛ فكم من ليال قضتها في بكاء على نفسها وشعورها الهائل بالخسارة عندما ظهر على حقيقته! مجرد رجل شرقي أناني. وكثيراَ ما شعرت معه بأنها حجر جامد خالي من الإحساس، لتتمنى لو تموت. ولولا (أماليا) -صغيرتها- لتحركت أفكارها لحيز التنفيذ.

* * * * *

انتفضت في مكانها تتلفت حولها بهلع، ثم شهقت عندما صدمها ضوء النهار الشاحب يملأ غرفتها. ألقت نظرة نحوه لتفاجأ بمكانه خالياَ. لم ترهق

تفكيرها بمكان وجوده؛ فقد تأخرت (أماليا) بالفعل عن موعد حافلة المدرسة، وستضطر لأن توصلها بنفسها. فتحت عينيها بصعوبة والصداع يكاد يفتك برأسها. ركضت نحو غرفة ابنتها تهم بإيقاظها عندما صدمتها مفاجأة أخرى. حدقت بالفراش الخالي، ونادت وهي تركض في كل مكان تناديها، حتى وصلت للمطبخ، لتجد زوجها يجلس باسترخاء يشرب فنجان قهوته: «صباح الخير حبيبتي.. لا تبدين بخير»

بصوت متقطع لاهث: « (أماليا).. لا... أجدها»

أومأ بابتسامة مستفزة: «اتأخرتِ في نومك عن معادها.. نوم العوافي»

صرخت بأعصاب على وشك الانهيار: «أين هي؟؟»

رفع أكتافه بلا اكتراث لحالتها، وهو يرد ببرود: «هتكون فين يعني!؟ لحقت باص المدرسة في آخر لحظة. متقلقيش.. كنت حريص إنها تاكل كل فطورها واديتها مصروف عشان تشتري غداها من مطعم المدرسة»

تنهدت بارتياح، وهي تلقي بنفسها على أقرب مقعد. دفع لها بكوب من القهوة ذات الرائحة النفاذة: «اشربي القهوة.. هتهدِّيكي لحد ما أحضرلك فطارك المفضل»

مدت يدها لتأخذ الكوب، عندما توقفت أناملها مقشعرة وهي ترفع رأسها نحوه بحدة: «أنت.. ماذا قلت؟؟»

رفع أكتافه وأنزلها بحيرة: «قلت هحضرلك فطارك.. إيه حاجة غريبة؟؟»

يبدو أنه يوم الصدمات! أغمضت عيناها بقوة، ثم فتحتهما ليفاجأ باحمرارهما الشديد، وهي تكز على أسنانها: «أنت تتحدث بالعربية!»

أومأ ضاحكًا، مردفًا بلهجته المصرية: «وإنتي بتردي بالإنجليزية. مش مهم هتتعودي مع الوقت»

أمسكت بكوب القهوة، ودفعته في وجهه، ليتفاداه في آخر لحظة، ثم يقول بنظرات معاتبة: «حبيبتي.. خدي بالك.. القهوة سخنة ممكن تحرقني»

صرخت بقوة بلهجتها الشامية بدون وعي: «يا ليتها كانت نار جهنم!! انت شوووووووو.. جِبلّة ما بتفهم!!؟»

اتسعت ابتسامته لنجاح خطته لدفعها لتتكلم بلهجتها الأصلية: «حسني ألفاظك يا حبيبتي»

ابتلعت لسانها، وسألته بصوت باك، مستمرة بالحديث بلهجتها بدون وعي: «انت.. انت كنت بتحكي هيك مع (أماليا)؟؟ انت حكيت معها عربي؟؟»

أخرج زفرة طويلة، ثم أومأ برأسه: «أيوة يا (ديالا).. البنت كانت بتترجاني إنها تتعلم العربي. بصراحة مقدرتش أخيب رجاها. وممكن نعمل قاعدة جديدة في البيت.. كلنا جوة البيت وبينا وبين بعضنا نتكلم عربي، وبرة البيت، أو لو عندنا ضيوف، نتكلم إنجليزي.. إيه رأيك؟»

هزت رأسها، ووضعت يدها على فمها تشهق بنحيب: «انت بتتحداني يا (مراد)!؟ انت بدك يصير اللي براسك وبس.. انت...»

فوجئت باقترابه الشديد منها، ويده التي امتدت لتمسح دموعها برفق وحنان. وعندما اشتد نحيبها، ضمها لصدره بقوة، يحتوي انهيارها الذي كان يزداد باطراد؛ حتى اشتدت ذراعيه حولها، وبدأت تشعر بشفتيه تلثمان قمة رأسها بقبلات اخترقت كل الحواجز التي وضعتها. دون أن تبتعد عن محيط ذراعيه، رفعت رأسها تحدثه بلهجتها الشامي: «انت ليش بتعمل هيك!؟ ليش ضدي في كل قرار!؟»

ـ «لأن هو دا الصح. مهما كان رأيك ومهما كان المجتمع اللي إحنا فيه، مش لازم نتنكر لأصلنا أبدًا.. لازم (أماليا) تتعلم كده. الإنسان اللي من غير جذور سهل اقتلاعه، وبيبقى عرضة لعواصف الحياة تتلاعب بيه»

ـ «انت... انت ما كنت هيك.. انت اتغيرت كتير يا (مراد)»

ـ «أنا متغيرتش ولا حاجة.. أنا بس بقيت أفكر صح؛ لأننا معانا أمانة.. (أماليا). وأي تغيير إنتي حاسة بيه مجرد إحساس وهمي لأني بقالي كتير بعيد عنكم»

لاحظت أنه مازال يحتويها على صدره بذراعيه الحاميتين. تجاهلت إحساسها الدافئ بالأمان، وتراجعت تداري احمرار وجنتيها.

تلكأت ذراعاه في إطلاق سراحها.. تمنت لو يعيدها مرة أخرى تنهل من نبع الأمان، حيث كانت للحظات وجيزة، ولكنه أطلقها وقد اغتمت عيناه بنظرات مظلمة فاجأتها؛ فقد كانت ابتسامته لا تزال مذيلة جوانب فمه

بتجعيدات في أركانه لم تلحظها من قبل. التفت بحدة يوليها ظهره قائلًا: «لازم أروح للسفارة عشان أثبت لهم إني لسة عايش، وبعدين هسأل عن الإجراءات اللي لازم نعملها عشان نرجّع (أماليا) لوصايتي»

قالت بحذر: «(أماليا)؟»

سأل بنبرة جادة: «عندك مانع؟ أعتقد مفيش أي رجل عربي أو إنجليزي يرضى بالوضع دا.. وصاية بنتي مع مراتي وأنا حي أرزق»

هتفت بارتباك: «ولكنني أنا وانت واحد.. مش هيك؟؟»

ـ «لأ مش هيك.. أنا آسف.. أنا واثق فيكي بالطبع.. ولكني مش واثق في اللي اسمه (غسان) دا»

ـ «(غسان) صديق عمرك.. حتى من قبل ما أتعرف عليك»

مط شفتيه ساخراً: «بلاش نتكلم في الموضوع دا تاني لو سمحتي. هسأل عن الإجراءات، وأكيد هنحتاجك للتوقيع. فكري كويس وبلغيني برأيك لما أرجع. ولو مترددة ممكن تاخدي رأي (أماليا) تساعدك في القرار»

راقبته يغادر الفيلا. سمعت محرك السيارة يدور، فنظرت ناحية علاقة المفاتيح جوار الباب. لقد تذكر مكان المفاتيح! شعرتْ بقبضة مؤلمة في صدرها. ماذا لو عادت له كل ذكرياته المفقودة؟؟ ماذا لو عاد (مراد) الذي كان قبل أن يسافر؟؟

ثم شعرت وكأن قاطرة مرت عليها. ارتجفت ساقاها وهي تنهار أرضًا، تتذكر الحادث الذي كاد أن يودي بحياته. لقد ذكر لها أنه ما يزال مهددًا، وأنه قد يفقد حياته في أي لحظة. شعرت وكأن قبضة أمسكت بقلبها تعتصره بقوة، وتتركه جافًا مهلهلًا لا حياة فيه.

طرقات على الباب، ثم صوته يُفتَح. بلهفة صوت (غسان) يركض نحوها، يرفعها من الأرض: «(ديالا)! يا إلهي ماذا بك حبيبتي؟؟ هل أنتِ بخير؟؟ لم لا تردين!؟؟»

رفعت عيناها المغرورقتان بالدموع: «(غسان)...»

ضم رأسها بقوة، مدمدمًا بنبرة مهددة:

ـ «ماذا فعل بكِ؟؟ تكلمي! هل أذاكِ؟؟ هل لمسك؟؟ هل... (دِي) حبيبتي.. لا تتركيني هكذا.. أجيبيني»

بدأت بتمالك نفسها، فأبعدت يديه عنها وجلست على أقرب مقعد.

ـ «أنا بخير.. ولا تقلق (مراد) لم يؤذني»

هتف بحيرة: «ولكنكِ منهارة! ظننت أنه... (دِي).. أنا لن أحتمل أن أراك تمرين بما مررتِ به من قبل. لن أقف مكتوف الذراعين وأشاهده يحطمك مرة أخرى. لن أسمح له»

حدجته بنظرة متسائلة: «ولكن.. كيف عرفت أنه غير موجود!؟؟»

أمسك بيديها بين يديه: «أراقب الفيلا منذ أيام، بانتظار الفرصة السانحة لأحدثك دون وجوده. لا تفهمينني خطأ؛ أنا لا أخافه، ولكنني أخاف عليك منه، وعلى (إيمي) بالطبع»

ـ «(غسان) أنت لا تفهم. (مراد) في خطر.. في أي لحظة قد يفقد حياته»

استمع (غسان) بصبر لحكاية زوجها، وهو يهز رأسه بابتسامة هازئة وعدم تصديق. وعندما انتهت من روايتها، التي ختمتها بدموع حارة، قال: «وصدقتِ!؟ (دي) حبيبتي لم أعهدك ساذجة. أين عقلك!؟ أين المنطق!؟ كيف تصدقين (مراد) بعد كل ما صدر منه في الماضي!؟ بعد أن أثبت أنه ثعبان ماكر يلون جلده في كل مناسبة!؟»

هتفت بحيرة: «ولكن.. لا يمكن يا (غسان).. في الماضي كان يمكن أن أتفق معك.. ولكن... الآن إحساسي بـ (مراد) مختلف. أنا أصدقه»

أخرج زفرة انزعاج: «وكلامك هذا يعني أنك ستتراجعين عن طلب الطلاق. هل تغيرت مشاعرك تجاهي أنا أيضًا؟؟»

ـ «لا تفهمني خطأ أرجوك.. جل اهتمامي الآن ينحصر في (أماليا).. وهي... وهي...»

نكست رأسها، فرفعها (غسان) يتطلع لعينيها الهاربتين منه: «ماذا يا (دي)؟ أخبريني حبيبتي.. ماذا بها (إيمي)؟؟»

- «(إيمي) تريدني أن أتصالح مع والدها، ولا أريده أن يظهر في هذه المرحلة الضحية البريئة وأخسر أنا ابنتي. (غسان).. امنحني...

قاطعها بزفرة حارقة وعينين ملتهبتين: «الوقت!!؟؟»

شدها من مرفقيها بعنف يهزها بانفعال: «(ديالا).. لقد كنتِ على وشك أن تصبحي زوجتي.. دقيقة واحدة فقط وكنتِ ستصبحين ملكي أنا!»

صرّت على أسنانها: «غسان.. أنت تؤلمني!»

بصدمة أبعد يديه عنها، يحدق بذهول فيما فعله: «آسف.. حقًا.. أعتذر.. سامحيني.. كل ما يحدث محض جنون.. (مراد) يعود بعد أن تيقنا من موته، وأنت تضيعين من بين يدي في لحظة. كل هذا يفوق قدرتي على التحمل.. تعلمين أنني أحبك كثيرا، ولا أكاد أتخيل وجودك معه تحت سقف واحد»

لم تستطع منع ذراعيه أن تحوطها ليضمها لصدره، ورغمًا عنها تذكرت نفسها مع زوجها. تسرح بخيالاتها في الليلة السابقة عندما جمعهما فراش واحد دون أن يحاول حتى لمسها أو الاقتراب منها، رغم كل شوقها ورغباتها السرية لأن يفعل، وفي الصباح كان كبرياؤها يتمرغ في الشفقة على ذاتها، بعد أن انتصر (مراد) بجدارة في معركة المقاومة، وخسرت هي بأمل أن تفوز في المعركة التالية.

عبس (غسان) باعتراض عندما أصبحت كلوح الثلج بين ذراعيه.

- «(ديالا)!!»

رفعت رأسها بحدة، وقد شحبت لدرجة الموت، عندما اكتشفت أن اسمها لم ينطق به (غسان).. حتى أن هذا الصوت لم يكن صوته!! اختلست نظرة للوراء، لتجد جسد زوجها يسد فتحة الباب. متى جاء!؟ وكيف لم تسمع صوت محرك السيارة!؟ وكيف سمحت لـ (غسان) بالتمادي!!؟

غضبت لتلك المشاعر التي أثارها وجوده في نفسها، واحتقرتها كما احتقرت نفسها لأنه أمسكها بالجرم المشهود. تدفقت الكلمات تحت ضغط المشاعر، وهو يتقدم نحوهما بملامح لا تفسّر: «مراد.. الوضع ليس كما يبدو»

التفت (غسان) لمواجهة (مراد) بتنهيدة يُقوِّي بها عزمه: «لا داعي لافتعال مشكلة من لا شيء.. كما لا داعي لأن تتظاهر أن حياتك الزوجية مع المرأة التي كنتُ أنا على وشك الزواج بها تسير على ما يرام. نحن كلنا نؤدي أدوار.. مجرد أدوار في مسرحية سخيفة. ولو كنتُ مكانك لانسحبتُ بكرامتي، ولما استدررت عطف (ديالا) وقلبها المرهف بحكاية سخيفة مثل تلك الشظية التي استقرت في رأسك؛ لتدفع شعورها بالشهامة، فترضى بالبقاء بجوارك، فقط لشعورها بالشفقة تجاهك، أو الشعور بالواجب الذي يلزم كل زوجة لأن تكون بجوار زوجها في محنته»

استمر (غسان) باندفاع متهور، غير آبه بمحاولات (ديالا) لإسكاته، وغير مبال بغضب (مراد) المكبوت، ووجهه الذي يزداد سوادًا، مع حلقات الشر

التي تدور حوله كهالة غير مرئية. صدمتها تضاعفت عندما لم يهجم على (غسان) كما توقعت، رغم أنه في أشد حالاته الغاضبة، مثل (غسان) تمامًا.. لكنه يتفوق عليه ببنيته الطويلة، بدون أي شكوك حول جاذبيته الجسدية، التي تفوق فيها على غريمه أيضًا. كانت قبضة واحدة من يده المطبقة قادرة على إخراس (غسان)، الذي ما يزال يثرثر بلا توقف. إلا أن صدره ارتفع وزفر الهواء قائلًا ببرود مناف لدمائه التي تغلي في عروقه: «هل انتهيت؟»

لهث (غسان) بصوت متهدج: «نعم.. أليس لديك ما تقوله؟»

ـ «لا.. إلا أنني أحب أن أضيف.. أن زوجتي...

وضغط على كل حرف من حروف الكلمة متابعًا: «عندما تنام بين أحضاني في الليل، لا تتذكر سوى اسمي، أيًا كان من يحاول أن يحتل حيزًا من أفكارها بالنهار»

كاد عنق (غسان) ينكسر من حدة الحركة، وهو يلتفت نحوها في شبه صرخة: «(دي).. هل تنامين معه!؟؟»

ولم يحذر من (مراد)، الذي اقترب منه في خطوة واحدة وأمسك بتلابيبه ليدفعه للخارج.. ولكن المفاجأة الحقيقية كانت من نصيب (مراد)؛ فقد استجاب (غسان) ليده التي جذبته بقوة تبعده عن زوجته، ولم ير الأول الزجاجة التي التقطها هذا الأخير أثناء التفاته.

متأخرًا جدًا انحنى (مراد) ليتفادى الزجاجة، ولكنها اصطدمت بوجهه.

ما حدث لم يكن من صنع مخيلتها الثرية.. هذا ما كانت تحاول (ديالا) إقناع نفسها به، وهي ترى وجه (مراد) الذي تلطخ بدمائه، بعد أن تسببت الزجاجة بجرح دامٍ في جانب وجهه.

لم يتوقف (مراد)، ولا حتى عندما سمع صراخها، وأكمل جذب (غسان) للباب، وألقاه وكأنه لا يزن شيئًا ليسقط خارج العتبة قائلًا: «إياك أن أراك بالقرب من زوجتي، أو ابنتي، وإلا ستفقد ما هو أعز بكثير من كرامتك المرة القادمة.. حتى أنك ستخشى حتى مجرد النظر لأي امرأة في الطريق»

زحف (غسان) متراجعًا مذهولًا: «أقسم أن تدفع الثمن يا (مراد)! لن تفلت بـــ...

صفق (مراد) الباب، والتفت لـ (ديالا)، التي هرعت نحوه لتضع أحد مناشف المطبخ النظيفة على الجرح: «ضع هذا ليمنع النزيف.. وهيا بنا للمشفى!»

وضع المنشفة على وجهه، وجلس على أقرب مقعد، زافرًا الهواء بصعوبة، محاولًا التحكم في أعصابه، كي لا يُلحقها بـ (غسان).

ـ «اجلسي لو سمحتِ ولا تفكري بجرحي.. ولا بأي شيء يحدث لي. أخبريني كيف تسمحين لرجل غريب أن... أن يضمك بهذا الشكل!!؟؟»

لم تكن غبية لتصر على خطئها، ولن يصدقها لو أقسمت له أنها من شدة اشتياقها له تخيلته هو الذي يضمها؛ لذلك سمحت لـ (غسان) بالعناق.

ألقت نظرة قلقة على المنشفة التي تشبعت بالدماء، وتمتمت: «(مراد).. سنكمل نقاشنا فيما بعد. الآن دعنا نعتني بجرحك أولًا»

ألقى بالمنشفة المشبعة بدمائه، وجذبها من تلابيبها بقسوة، ليقربها منه بشيء من الخشونة. راقبته لاهثة، وقد أصبحت أقرب لوجهه الذي تتراقص عليه ملامح غضب، لم تُخفْها قدر ما أثارتها: «هل هذا ما تشتاقين له؟؟ رجل؟ ألهذا استسلمت لعناقه؟"»

احترقت وجنتاها وكادت تصرخ «نعم! ولكن ليس أي رجل»؛ ولكنها بدلًا من ذلك انتزعت ملابسها من يده تشهق بصدمة: «هل جننت!!؟»

ـ «نعم.. هذا سيكون مصيري حتمًا عندما أرى زوجتي وأم ابنتي بين أحضان رجل سواي ما إن أدير لها ظهري»

جلبت منشفة أخرى نظيفة، ووضعتها على جرحه متسائلة: «بالمناسبة، لماذا عدت بهذه السرعة؟؟»

ـ «جئت لأسألك الاتجاه الصحيح للسفارة، عندما وجدت نفسي لا أتذكر الطريق»

ـ « (مراد).. أرجوك»

نهض واقفًا يحدجها بنظرات غاضبة. تحرك مغادرًا المطبخ، عندما ترنحت خطواته، فهبت تسانده بلهفة: «(مراد).. ماذا بك؟؟»

لم يرد عليها، ولكنه استسلم لها منهكًا تسانده لغرفة المعيشة، ثم تراجعت واتخذت طريقها لغرفة النوم الرئيسية. لم يشعر (مراد) بما يحدث حتى وجد نفسه يستلقي على حاشية ناعمة. فتح عينيه الغائمتين ليفاجأ بنظراتها القلقة، وهي تمسك بالهاتف وتثرثر بكلمات لم يفهمها، ثم غاب عن الوعي.

فتح عينيه ثانيةً ليجد وجه رجل غريب يبتسم في وجهه، ويهتف باللهجة الشامية: «حمد الله على السلامة يا زلمة.. خوفتنا عليك يا رجال! (ديالا).. شوفي هادا الأبضاي تبعك منظر بس.. شوية دم يخلوه يفرفر كيف الفروج»

دفعته (ديالا) لترد عليه باللهجة نفسها: «الله يسامحك يا (قصي)! بعِّد عنه.. بعِّد!»

تراجع المدعو (قصي)، لتقترب (ديالا) من زوجها: «حبيبي.. انت بخير؟ خوّفتنا عليك كتير»

رمش بعينيه أكثر من مرة، ثم سألها باستغراب شديد: «انتو بتتكلموا عربي.. ولا أنا بخرف؟»

ضج (قصي) بالضحك: «وكمان دمه خفيف.. الله يحظك يا (مراد)! والله ما كنت بعرف عنك خفة الدم. كان على طول دمك يلطش»

ـ « (يلطش)؟ و(حبيبي)؟ لا أنا فعلًا بهذي»

ـ «لا حبيبي.. هادا جارنا الدكتور (قصي).. إجا وطبب جرحك والحمد لله طمنّا عنك.. بس (قصي) ما بيحب يحكي بالإنجليزي في بيوت العرب»

مد (مراد) يده ليصافحه بحماس: «أخيراً واحد عاقل في بلد المجانين دي!»

نظر (قصي) باستغراب لـ (ديالا)، فأسرعت تقول: «ما تواخذنا يا قصي.. (مراد) عمل حادث وذاكرته ما رجعت متل قبل.. بيتذكر أشياء وبينسى وجوه»

صافحه (قصي) يهز يده بقوة: «حمد الله على سلامتك.. وأنا بقول خفة الدم ما كانت في (مراد) القديم. الحمد لله على فقدان الذاكرة.. وإياك ترجّعها تاني.. انت هيك أخف. بس كنت خود بالك وانت بتفتح الويسكي.. ليتك كنت نسيت الشرب كمان.. الله كريم يمكن حادث تاني يخليك تنساه»

برقت عينا (ديالا) بقوة، بينما ضج (مراد) بالضحك.

* * * * *

بعد انصراف (قصي) الصاخب، نهض (مراد) ليتطلع في المرآة لنصف وجهه المضمد. لمس الضمادات ثم التفت بنظرة ساخرة لـ (ديالا)، التي دخلت بعد توديع (قصي): «ويسكي؟ حلوة دي»

ـ «ما بعرف.. اللي إجا على بالي وقتـا»

ضاقت عيناه بتساؤل: «أنا كنت بشرب كتير.. قبل ما أسافر؟؟»

أومأت بهزات صامتة. أطبق شفتيه وأشاح بوجهه ينظر في المرآة يتأمل جرحه، وخاطبها من خلال المرآة: «كنتي خايفة على عريس الهنا.. عشان كدة مجبتيش سيرته للدكتور»

ـ «بعرف إن (غسان) غلطان.. بس مش راح تستفيد لو حبسوه»

استدار نحوها بحواجب مرفوعة: «و(أماليا) هتقولي لها إيه؟؟ إني كنت بشرب خمرة؟ ولا إن (غسان) حبيب القلب كان بيحضن أمها؟»

ـ « (مراد).. بترجاك.. ما تجيب سيرة لـ (أماليا)»

ـ «أوك.. موافق.. بشرط..»

* * * * *

(٥)

اختلست (ديالا) النظرات الحانقة من الباب الموارب، بدون أن يشعر بها الرجل والفتاة المنهمكان في حديث خاص، وقد استلقت الثانية جوار الأول على الفراش، بعد أن أصرت ألا يغادره أبدًا قبل أن يطيب جرحه، ثم طلبت من أمها أن تعد له طعامًا خاصًا، وبعدها انهمكت معه في حديث هامس ضاحك.

برغم حنقها الشديد، فإن الابتسامة والسعادة التي لونت وجه (إيمي) جعلتها تشعر بالرغبة في البكاء. منذ وقت طويل جدًا لم تر (إيمي) مرتاحة ومسترخية.. لم تعلم ماذا أخبرها عن سبب الجرح في وجهه، ولكنها اطمأنت عندما لم توجِّه لها ابنتها أي نظرات لوم أو عتاب.

بمرور الوقت بدأت تشعر أن اقتراب (مراد) من (إيمي) شيء جيد، رغم أنه يتعمد دائمًا التحدث معها باللغة العربية، وأيضًا لم تعد ترى أي غضاضة في ذلك لدرجة أدهشتها نفسها.

شيئًا فشيئًا بدأت تشعر بالحواجز بينها وبين (مراد) تسقط الواحد تلو الآخر. حاجز واحد ظل قائمًا، بل استمر بالارتفاع بينهم، وهو علاقته بها. كان يتجنبها دائمًا، لا يوجه لها أي حديث مباشر إلا فيما ندر، وفي حضور (أماليا) فقط.

عزت هذا الابتعاد وتوتر العلاقة بينهما لتلك الحادثة التي تسبب بها (غسان) عندما رآهما الأول معًا.. تمنت لو أعطاها الفرصة لتشرح له.

دفعت الباب تحمل صينية الطعام، لتقف مذهولة أمام مشهد لم تتوقع رؤيته ولا في الأحلام.. الأب وابنته يقفان في خشوع غريب، (مراد) يسبق ابنته بخطوتين ويصلي بها. والأكثر غرابة هو منظر (أماليا) نفسها، وهي تغطي شعرها، وتقف بخشوع خلف والدها، تصلي!

ظلت (ديالا) واقفة على حالها، حتى سلَّم (مراد) وتبعته (أماليا). تأمّل الأب وجه ابنته لحظات بابتسامة مشعة، ثم فتح ذراعيه لتقفز الفتاة بسعادة بين أحضانه، قائلة بلغة عربية مكسرة: «شكرًا دادي.. أنا سعيد إنك ألِّمتني الصلاة. آوز أصلي كل يوم»

قهقه بضحكة خطفت أنفاس الواقفة متسمرة على الباب: «حبيبتي يا (أملي).. الصلاة خمس مرات في اليوم بس»

اتسعت عينا الفتاة بسعادة: «أحقًا يا أبي؟»

زمجر بمرح: «بالعربي حبيبتي»

ـ «أعتذر.. أعني... آسفة»

ثم التفتت لترى والدتها، فقفزت نحوها: «ماما.. هل رأيتني؟ أعني... هل نظرتِ لي وأنا أصلي مع دادي؟؟»

ازدردت (ديالا) ريقها بصعوبة، وهزت رأسها بعينين مغرورقتين بالدموع، قائلة بلهجة شامي: «إيه نعم حبيبتي.. ما شاء الله تبارك الله»

التفتت الفتاة لأبيها بتساؤل: «دادي.. أنت... أنت... عفوًا لا أعرف كيف أقولها بالأربية»

أومأ رأيها بهزة خفيفة: «مش مهم حبيبتي.. قوليها بأي لغة»

ـ «لماذا أنت وماما تتحدثان بلهجات مختلفة، رغم أنكما عربيان مثل بعض!؟؟»

استرق نظرة خاطفة لزوجته، ثم أعاد اهتمامه لابنته: «لأننا من بلدين مختلفين.. أنا من مصر، وهي من الشام.. كما هو الحال في انجلترا وأمريكا؛ الدولتان تتحدثان الإنجليزية ولكن بلهجتين مختلفتين»

ظهر الاشمئزاز على ملامح الصبية: «لا بابا.. أمريكا لهجة [فالجر].. لا وجه للمقارنة»

ثم فكرت لحظات وأردفت: «فهمت.. في هذه الحالة أي اللهجات هي [فالجر].. المصري أم الشامي؟؟»

ضحك (مراد) وقرص أذنها: «كل اللهجات العربية جميلة ومفيش وجه للمقارنة؛ لأن أصول العرب أقدم بكثير من أصول الإنجليز والأمريكان.. ولا أنا غلطان يا (ديالا)؟»

انتبهت (ديالا) أنه يحدثها فأومأت: «دادي معو حق يا (إيمي).. وبالمناسبة إنتي معطلتيه عن أكله»

نظر (مراد) لابنته بتوسل: «ألم يحن الأوان لأتناول طعامي خارج غرفة النوم؟»

هتفت (أماليا) ضاحكة: «بالأربي دادي»

غطى عينيه مازحًا: «أووبس! سامحيني المرة دي بس.. وهعيد سؤالي.. (أماليا) أرجوكي عاوز أفطر على السفرة»

نظرت (أماليا) لأثار الجرح في وجهه، ثم أومأت: «أوك دادي.. المرة دي بس.. ستكون المرة الأخيرة»

قبّل قمة رأسها: «شكرا حبيبتي.. متنسيش تشكري ماما كمان لأنها تعبت معايا أوي طول ما أنا تعبان»

اتجهت (أماليا) نحو أمها، وشبّت على أطراف أصابعها، لتقبل وجنتها: «شكراً ماما»

ثم أردفت هامسة: «شكراً لأنكِ وفيتِ بوعدك»

راقبتها (ديالا) حتى غادرت الغرفة، وبخطوات مترنحة اتجهت نحو (مراد) الذي ينتظرها على الفراش.. وضعت أمامه صينية الطعام ذات السيقان الطويلة. شكرها بغمغمة وهو يبدأ طعامها بالبسملة: «بسم الله الرحمن الرحيم..»

أجلت صوتها بخشونة لتثير انتباهه.. تجاهلها أول مرة، ثم كررتها. رفع رأسه بنظرة تساؤل، فقالت: «أنت... أنت كنت تصلي مع (أماليا)؟»

ـ «دا سؤال ولا اعتراض؟»

هتفت بحماس: «لا.. ماهو اعتراض.. أنا بس مستغربة؛ أنا ما شوفتك من قبل تصلي.. ولما شوفت (أماليا)، حسيت أني كتير ظلمتها»

ـ «أفهم من كدة إنك مش معترضة على كل اللي بيحصل؟»

ـ «لا يا مراد.. (أماليا) سعيدة، وعمري ما شوفتها بهيك ابتسامة، ولا حتى معك قبل ما تسافر.. وانت بعمرك ما ضميتها، ولا فكرت فيا متل ما بتعمل هلأ. انت اتغيرت يا (مراد).. وأنا مرعوبة إننا نفئدك.. أقصد... (أماليا) تفئدك. لازم تعرض حالتك على الأطباء هون.. الطب متقدم كتير»

زفر ساخراً: «قصدك عن البلد المتخلف الإرهابي؟»

احمرت وجنتيها بإحراج: «خلصنا (مراد).. بس لازم تعترف إن الطب هون متفوق عن أي بلد عربي، ولازم تحاول تتعالج. أنا ما بتخيل إنك ممكن... (مراد).. أرجوك.. فكر بـ (أماليا)»

أخرج تنهيدة كبيرة: «أوك.. نخلّص موضوع السفارة والوصاية، وبعدين أشوف الموضوع دا»

هزت رأسها بامتنان، وهمت بعناقه بفرحة، عندما تراجع للخلف بنظرة مشمئزة، فتراجعت بارتباك.

ـ «أنا... آسفة كتير.. ما قصدت»

التهى بتناول طعامه مغمغماً: "حصل خير.. يا ريت تكلمي المحامي عشان نسرّع الإجراءات»

ـ «إيه..طبعًا»

راقبها تغادر الغرفة بقدمين تلتفان حول بعضهما من شدة الارتباك.

ألقى الملعقة من يده، وأخرج زفرات من الهواء الحار بصعوبة من شدة الضيق الذي يطبق على صدره، حتى أصبح خروج أنفاسه ودخولها رئتيه بمعجزة.

* * * * *

(٦)

بدأت تعتاد على إحساسها الجديد بزوجها. الشعور بالاغتراب أخذ بالاختفاء، وبدأ يعود لها إحساسها القديم به، والذي تزوجته من أجله. ومع كل لحظة من استمتاعها بهذا الشعور، كان خوفها يتعاظم أن تفقده من جديد.

انتهت معاملات السفارة في أسبوع واحد. مشكلة واحدة واجهتهما: عندما طلبوا منهما تجديد عقد زواجهما؛ بادعاء أن زواجهما تم في بلد مختلف، وكي تتم إعادة الوصاية للأب لابد أن تكون عقود الزواج إنجليزية.

ابتسمت بأمل وهي تحدق بوجه (مراد)، وتفكر أن القدر يمنحها فرصة جديدة وصفحة جديدة، ولابد أن تغتنمها ولا تبددها أبدًا. وضعت توقيعها سارحة بأفكارها وبحياتها المقبلة.

وبعدها بدأ بالتردد على المشفى بشكل شبه منتظم، رافضًا تمامًا أن يطلعها على أي جديد، أو حتى يأخذها معه كما طلبت منه مرارًا؛ بحجة أنه لا يرغب في منحها أملًا زائفًا.

* * * * *

كانت بانتظاره على أحر من الجمر، بعد أن أعدت له مفاجأة. الليلة عيد زواجهما. تركت (أماليا) تبيت عند الجيران في حفلة مبيت خاصة بالفتيات، وطهت الأصناف التي يحبها مع كعكة زينتها بنفسها. وارتدت ثوبها الأزرق

الذي اشترته خصيصًا للمناسبة. مكشوف تمامًا، ولكنها لم تبالِ؛ فهي وهو فقط ولا يمكن أن يمانع.

الرجل الشرقي داخله أصبح أكثر غيرة وحمشنة. كانت تتضايق في الماضي ولكن الآن، الحماية والاحتواء.. أحاسيس مثيرة لم تظن أنها ستشعر بها أبدًا نحو زوجها (مراد).

تزينت كعروس تدعو بلهفة أن ينسى حادثة (غسان)، ويبدأ معها صفحة جديدة؛ فقد اتسمت تعاملاته معها بالبرود الشديد مؤخراً.

أطفأت الأنوار عندما سمعت صوت محرك السيارة، وانتظرته حتى دخل وأضاءتها من جديد، ليقف مبهوراً بالجو الاحتفالي غير المتوقع. وازدادت عيناه اتساعًا وهي تقترب منه أجمل من أي يوم مضى. رفعت شعرها الكستنائي لتظهر عنقها البجعية بإثارة، وقد تدلى من أذنيها الصغيرتين دمعتان لؤلؤيتان، توهجتا مع الأضواء، وتألقتا مع التماع بريق عيناها العسلي. ازدرد لعابه عندما تابع ما تقوله بشغف بدون أن يسمعها. فقط حركات شفتيها الكرزيتين بلهجتها الشامية تزيدان من حرارة الجو حوله، وتنضحان العرق الغزير من جبينه: «حبيبي.. شو بك؟؟ انت منيح؟؟»

فك رباط عنقه وتأوه: «حاسس إني مخنوق.. افتحي الشباك»

ـ «شو شباك!؟ التكييف المركزي حبيبي.. انت نسيت!؟»

وضع رأسه على كفه، ليجد عيناه تتطلعان لباقي جسدها الذي التصق به الثوب الأزرق كجلد ثان. تلكأت نظراته على ثوبها بتفصيلاته الجريئة، أكثر بكثير مما اعتاده منها. اشتد احتقان وجهه وهو يصيح بانفعال: «إيه الفستان دا!؟ مش شايفة حضرتك إنه مكشوف أوي!؟»

هزت أكتافها بدون حياء، وعيناها تتلاعبان بنظراتها المغوية: «إيه.. وحضرتك ما لاحظت إنك انت لحالك ضيف الحفل!؟ يعني كل هاد منشانك انت وبس»

ابتلع لعابه بصعوبة: «وإيه المناسبة؟؟»

اقتربت منه تطوق عنقه بذراعها، وبيدها الأخرى تعبث برباط عنقه المحلول: «المناسبة هي عيد زواجنا. مسامحاك حبيبي على نسيانك.. بس من هلأ ورايح لازم التاريخ دا ما يروح من بالك أبدًا»

ازداد احتراقه عندما شبت على أطراف حذاءها المرتفع، لتطبع قبلة على ذقنه. بانفعال زائد دفعها عنه حتى كادت تسقط، ولكنه أمسك بيدها ليمنع جسدها من الترنح، مجيبًا على نظراتها المتسائلة: «هي (أماليا) فين؟؟»

ـ «عند الجيران.. ما تقلق إحنا لحالنا»

هتف بارتباك: «لازم آخد دش.. ريحتي عرق و...»

عادت تلتصق بصدره، هذه المرة بيدها الأخرى كأس قربته من شفتيه.

ـ «اشرب»

هتف: «إنتي عارفة إني»

ـ «إيه.. بعرف.. ما بتشرب.. بس هاد الكوكتيل تبعك المفضل.. اشربه يبرد نارك»

كان بحاجة لمشروب بارد بالفعل ليطفئ من جوفه المحترق، فتناول الكأس ودفعه مرة واحدة في حلقه، ليبدأ الاحتراق الحقيقي بعدما شغلت مشغل الاسطوانات وأمسكت بيده قائلة بدلال: «أسمح لك بالرقص معي.. هاي الرقصة وكل الرقصات»

لفت ذراعيها بامتلاك حول عنقه، ودارت به في المكان على أنغام الموسيقى الناعمة. فجأة احتوتها رجفة بفرحة شرسة مصحوبة بألم مبهج عجزت عن تفسيره، ولكنه كان يشبه الإدمان. لقد أدمنت زوجها من أول لمسة. أغلقت عينيها تستمتع بقربه وعواصف مشاعرها تضرب بجدران أحاسيسها.

كان يفقد السيطرة في سرعة، وإن لم يتوقف الآن لن تكون هناك عودة للخلف. احتدمت مشاعره حيث تتقاتل الرغبة مع الإحساس بالواجب، وبين ما هو صواب وما هو خطأ. وكانت معركة محسومة من أول لحظة شعر بنعومتها بين يديه.

* * * * *

تمرغت بين الأغطية وكأنها في حلم جميل. تمطت بكسل وكل خلية في جسدها تصرخ بأحاسيس حيه تتلوى بداخلها.

فتح عينيه وبصدمة نظر لها. ما تزال تتمطى كقطة ناعسة. غطى وجهه بيديه متأوهًا. فتحت عينيها تشعر بعودتها لأرض الواقع. تأملت رفيقها في الفراش يخفي وجهه بين يديه، ثم تلفتت حولها تشعر بشيء غريب يحدث، ولكنها لم تدرك كنهه بعد. رفعت الغطاء لأعلى صدرها عندما أبعد يديه عن وجهه، ووجدت نفسها تسأله سؤال لم يمر على أفكارها.. قفز للسانها فجأة!

ـ «انت مين؟؟»

أخرج زفرة طويلة حارقة، قائلًا بصوت شعرت وكأنها المرة الأولى التي تسمعه فيها: «(ديالا).. لازم تعرفي مين جوزك»

لم تشعر بما حدث بعد جملته تلك، ربما لأنها فقدت الوعي حينما أدركت فجأة أمراَ أكبر بكثير من حروف كلماته الغامضة؛ فقد قضت الليل مع رجل يشبه زوجها، ولكنه ليس زوجها! كيف عرفت؟ كل هذه الأفكار كانت تدور في رأسها أثناء الدوامات التي أخذتها معها لأعماق عقلها الباطن.

فتحت عينيها ترمش عدة مرات. من خلال النافذة كان الجو غائم والطقس مثلج بالخارج. الغيوم الكثيفة المثقلة تحجب شمس الصباح عن الإعلان عن نفسها. باختصار كان الجو مقبضًا للنفس. لأول وهلة ضاع منها

الإحساس بالمكان والزمان، ثم بدأت تسترجع كل ذكرى على حدة، حتى وصلت للمشهد الأخير. شهقت بفزع وهي تنظر لجانبها في الفراش، لتجده فارغاً تمامًا. الشهقة التالية كانت عندما اكتشفت أن أبواب الدولاب مفتوحة، وأيضًا رفوفه فارغة!

صرخت مرة أخرى تنادي على ابنتها، وهي تنهض تلملم الملاءة حول جسدها، وتركض متعثرة حتى وصلت لغرفة (أماليا). وكاد قلبها أن يتوقف، وهي تركع في أرض الغرفة، تتأمل أبواب الدولاب المفتوحة، ورفوفه الفارغة تمامًا من كل ملابس ابنتها، وحتى ألعابها!

أخذتها نوبة هستيرية، تصرخ وتلطم ببكاء حارق، حتى أثار انتباهها ورقة مطوية على الفراش. أمسكتها بيدين مرتجفتين، وعينين تسيل منهما الدموع كالفيضان. وبصعوبة شديدة استطاعت قراءة الرسالة.

"(ديالا).. أعتذر عن ما حدث. أقسم لك أنني لم أخطط أبدًا لهذه التطورات. (أماليا) معي في الأمان.. لو أردتِ رؤيتها تستطيعين أن تلحقي بنا في مصر.. وسأكتب لكِ العنوان. ولو أردتِ سأتزوجك بشكل رسمي على يد مأذون.

ملاحظة: لا تتعبي نفسك بالبحث عن جواز سفرك. بعد أن تستقر الأوضاع لـ (أماليا) في مصر سأرسله لكِ على السفارة؛ لتتمكني من اللحاق بنا.. لو أردتِ بالطبع.

الإمضاء/ داغر علم الدين الأسيوطي."

*****

(٧)

تأمل بعينين شاردتين صفحة مياه النيل المستوية كأنها حصيرة ممددة، مفروشة بقصة كفاح وعراقة امتدت لآلاف السنين منذ فجر التاريخ. ولا أجمل من نيل (أسيوط)! (أسيوط) (حارس الحدود بالهيروغليفية)★.

تنفس بعمق، يشتمّ عبير نسيمها المتراخي بعد عصر قائظ، ثم أطلق أنفاسه. وكما يفعل مرارًا راجع في عقله تاريخ مدينته التي يعشقها. كم تمنى لو تمتد جذور هذا العشق المتجذر في أعماقه ليصل لـ... (أمـــاليا).

ابتسم متذكرا جبينها المقطب، وهو يحكي لها أن البطالمة، أثناء حكمهم لمصر، أطلقوا علي أسيوط اسم (ليكوبوليس) أي (الذئب). يومها قهقهت بطريقتها التي تخطف أنفاسه، قائلة بجرأة: «زيك.. فاكر لما قلتلي مرة إنك ذئب مستوحد»

ـ «امممممم.. اتعلمتي كلمات كتير بالعربي.. شوية كمان ومحدش هيقدر يقف قدامك»

ـ «بابا.. ليه بتحب (أسيوت) أوي كدة!؟ انت بتحبها أكتر مني؟؟»

يومها ضم جسدها الصغير بحب كبير، قائلا بتنهيدة كبيرة: «قلبي مقفول على (أماليا).. و(أماليا) بس. اوعي تشكِّي أبدًا في الحقيقة دي»

سألته بلؤم: «حتى أكتر من (سولاف)؟؟»

تذكر بابتسامة باهتة كيف جذب أذنها برفق، وعيناها تدور في محجريهما بشقاوة، وهي تردد باللغة الإنجليزية بكلمات سريعة: «أعتذر.. أعتذر.. لن أكررها.. تذكرت.. اسمها خالة (سولاف)»

ترك أذنها بتنهيدة، محاولًا ألا يبدو متباسطًا، ولم يعرف كم بدا فاشلًا في محاولته: «المرة الجاية مش هسامحك أبدًا لو اتكلمتي بالإنجليزي»

ضحكت ببراءة، فتنهد بنبضات خفق لها قلبه بقوة: «بس أنا متأكدة إنك بتحب (ألكسان) أكثر مني»

أخرج زفرة تعب: «إنتي بتتكلمي كتير أوي على فكرة.. وأنا مش عارف عاوزة توصلي لإيه.. بس أنا هريحك وهقولك مرة واحدة وللأبد عشان لازم تفتكري اللحظة دي طول حياتك.. (ألكسان) هو تراثك.. جذورك اللي مش ممكن تتخلي عنها أبدًا مهما كانت المغريات، ومهما كانت الضغوط. أنا حافظت عليه لحد دلوقت عشان يعيش كما قُدِّر له، زي أي قصر أثري في العالم.. مئات مئات السنين»

ـ «وليه سموه (ألكسان)؟»

ـ «لأن الباشا صاحب القصر كان اسمه (ألكسان). بصي يا حبيبتي.. جوانب القصر والزخرفة مافيش منها في العالم كله.. (ألكسان) باشا كان حريص إنه يستعين بمهندسين إنجليز وفرنسيين؛ عشان يكون القصر بالعظمة والفخامة اللي إنتي شايفاها دي»

ـ «ولكن بابا.. أنا مش شوفت في لندن قصور زيه. بالطبع لندن متحف كبير للقصور التاريخية.. بس قصرك له إحساس خاص بحسه جوايا»

لفت انتباهها بلطف بنبرة جادة: «دا قصرك إنتي يا (أماليا) مش قصري. وطبعا هو مختلف عن قصور لندن. (ألكسان) تاريخك إنتي.. وملك لك إنتي.. والدتك أخطأت لما...!!»

وعلى الفور أدرك خطأه، عندما ذكرها بما لم تنسه أبدًا.. عندما تحولت ملامحها الصغيرة الضاحكة لعابسة، والتمعت الدموع المحتبسة في عينيها، وسألته السؤال الذي لا تسأم من تكراره أبدًا: «بابا.. ماما حبيبتي.. أوحشتني كتير.. وعاوز أشوفها»

قهقه ضاحكًا ليبدد لحظات التوتر: «اسمها (وحشتني).. مش (أوحشتني).. باين عليكي عاوزة دروس في اللهجة المصري. وأنا قلت لك إني بعتّ لها العنوان عشان تيجي لو هي عاوزة»

اسودت صفحة مياه نهر النيل عندما اتخذت الشمس طريقها نحو الغروب، لتترك القمر الذي لم يكتمل نموه بعد، لينشر ضوءه الشاحب على صفحة النهر الساكنة، إلا من بعض الاهتزازات الخفيفة مع نقيق الضفادع التي تسكن شاطئه، واعتاد ليل أسيوط على الحياة معها.

غربت أفكاره لتطير حيث منعها طويلًا، وقيدها كي لا يحلم مجرد حلم أن تتحقق. أمل واحد يتمسك به: أن تأتي لتطالب بابنتها. ولكن أخبارها

انقطعت تمامًا، خاصة بعدما أرسل لها جواز سفرها بعد استقراره هو و(أماليا) في (أسيوط) بشهرين. وها قد مر شهر آخر دون أي اتصال، رغم أنه أرسل مع جواز السفر العنوان ورقم تليفونه.

أصوات صرخات (أماليا) نبهته أنه لم يعد وحيدًا مع أفكاره، فالتفت لها، تركض وخلفها تركض امرأة عجوز، فهتف (داغر) محتضنًا (أماليا): «ايه اللي بيحصل دا يا (بخيتة)!؟ ليه بتلاحقي (أماليا)!؟»

زغرت (بخيتة) بعينيها البراقتين، لتلمعان بتوهج على صفحة وجهها الأبنوسي، وهتفت: «اسمع يا سيدي.. بنتك العفروتة دي مش عاوزة تاكل الكحروتة. كيف راح تكبر إن ما أكلت الكحروتة صبح وعشية!؟ وأنا خلاص زوهقت منها ومعوزاش أتعامل وياها.. أنا عجوز كركوبة.. الصحة خلصت يا ولدي ومعاها طولة البال»

استرق (داغر) نظرة لابنته التي تدفن رأسها في حجره، وتمتم بهمس: «ليه مش عاوزة تاكلي الكحروتة؟؟»

أجابته بنفس طريقته الهامسة: «قلت لها مائة مرة أن اسمها (بيضة).. وبالإنجليزية (Egg).. بس هي كمان مش بتسمع، وأنا مش هاكل حاجة اسمها (كحروتة)»

قهقه (داغر) حتى دمعت عيناه، ثم نظر لبخيتة العجوز: «اطمني يا خالة (بخيتة).. أنا فهمت المشكلة»

ـ «المشكلة إن المفعوصة دي بتدلع أوي يا (داغر)»

رفع رأسه بحدة، ليتطلع على الحسناء التي اقتحمت المكان بصوتها الحاد.

ـ «وعليكم السلام ورحمة الله يا (سولاف).. الناس بترمي السلام الأول»

لم تترك له الفرصة لإرباكها: «انت لسة بتدافع عن الـ...»

بنبرة حادة اخترقت عظامها الدقيقة: « (سولاف)!»

قضمت شفتيها المطليتين، وهي تحدج الفتاة الصغيرة، والتي اعتدلت في حجر والدها ولم تعد مختبئة، لتبادلها النظرات بتحد الند بالند. تحركت (سولاف) بأناقة وغرور تصرخ به كل حركة من حركاتها. كانت سمراء طويلة، ولكنها لم تصل لطول (داغر) الفارع. وقد حددت جسدها النحيف بأحد أثوابها المتتبعة لخطوط الموضة، البعيدة كل البعد عن تقاليد بلد صعيدي كأسيوط، ولكنها كانت تعتمد اعتماد كلي على التأثير في الرجال بنظرات عينيها الحادة، اللتين أحيانا تتحركان بإغواء، وغالباَ يكاد التهديد والتحدي ينطق بلغة مفهومة تمامًا، خاصة الآن وهي تحدج (أماليا) بنظرات تكاد ترديها وهي تجلس في المقعد الأثري المقابل لـ (داغر)، ورمقت (بخيتة) بتعالي: «روحي انجرِي اعملي عصير مانجو فريش»

هتفت (بخيتة) وهي تغادر المكان: «(بخيتة) مش بتعمل عصير لحد.. بخيتة عجوزة كركوبة اهنِه لـ (أمال) وبس. انجري اعملي لنفسك لو عاوزة»

انتفضت (سولاف) صارخة: «شوفت يا (داغر)؟ سمعت العجوزة الخرفانة دي بتقول ايه؟؟ إزاي تسمح لها تهيني وأنا خطيبتك وبنت عمك، وفي المستقبل القريب صاحبة القصر كله!؟»

قلب شفتيه: «(بخيتة) عندها حق.. هي هنا عشان (أماليا) وبس.. هتربيها وتهتم بيها زي ما ربتني أنا و(مراد)، وهي بالعافية بتقدر تقوم بالمهمة دي؛ خاصة وأن أملي الغالي...

وخص ابنته بنظرة رقيقة متابعًا: «شقية كتير»

تمتمت (أماليا) بدون أن ترفع عيناها عن (سولاف): «شوية بس دادي»

زفرت (سولاف) بغيظ: «يلا يلا يا حلوة روحي والعبي في الجنينة» عقدت ذراعيها على صدرها بعناد: «بابا منعني من النزول للجنــ... للجــ...»

نظرت الفتاة لوالدها ليساعدها، فأكمل بإيماءة: «جنينة»

هزت رأسها بنظرة انتصار: «آه.. جنينة.. بابا بيقول إنها خطر على (أماليا) في الليل.. مش كدة بابا؟»

كانت تعض شفتيها بغيظ، مع رسم ابتسامة أشبه بابتسامة (كرويلا): «ما شاء الله! شهرين بس ولسانك اتعدل، وكأنك مولودة هنا!!»

نظرت الفتاة لأبوها قائلة بفخر: «أنا بنت (أسيوط).. مش كدة يا دادي؟ وكمان جذوري هنا في الأرض دي وفي القصر وكل مصر.. يبقى كان لازم أتعلم بسرعة. ولا أيه يا... خالة...»

غرزت (سولاف) أظافرها الطويلة المطلية في قماش المقعد القديم بغيظ: «(خالة)!!؟ ايه دا يا (داغر) انت عملت للبنت غسيل مخ كمان، وبقت بتتكلم زيك!!؟ كلام كله تخاريف ميأكلش عيش»

رمق (أماليا) بفخر، عكس النظرة الباردة التي خص بها خطيبته: «أفكاري ومعتقداتي مش خرافات يا (سولاف).. خدي بالك من كلامك لو سمحتِ»

هتفت بصراخ: «يا (داغر) حرام عليك! أنا صبرت كتير أوي، وأقول لنفسي "بكرة يزهق.. بكرة يمل.. بكرة يشوف كل ملاك القصور اللي حواليه بياخدوا ملايين من بيع قصورهم"، أو حتى تهده وتبني مكانه أبراج تكسب منها ملايين.. مش أحسن من الخرابة اللي انت عايش فيها دي!؟»

نظر لابنته التي تستمع للحديث بإنصات: «(أملي).. لو سمحتِ روحي واطلبي من (سوار) يعمل لي فنجان قهوة.. ولخالتك (سولاف) عصير مانجو.. ولَّا ليمون يبرد أعصابك؟؟»

ندت عن (سولاف) زفرة ساخرة، وهي ترمقهما باستياء مدمدمة: «(خالتك)!!؟ هتحمِّل لحد إمتى يا ربي بس!؟ دا كتير أوي على أعصابي»

انتظر حتى خرجت (أماليا) تنفذ طلبه، ونظر لـ (سولاف)، وبنبرة حادة لم تخطئها: «لآخر مرة هسمح لك تتكلمي معايا بالطريقة دي.. سواء لوحدنا أو قدام أي حد»

لم تستطع منع لسانها باندفاع: «تقصد المحروسة الصغيرة!؟»

ارتعشت من النظرة العاصفة التي لمعت كالبرق، لتدرك أنها تجاوزت كل الخطوط الحمراء، التي قد تجعلها تخسر كل شيء في لحظة واحدة.

بمعجزة ارتاحت أساريرها العابسة، وبدأت بالتمايل وهي ترمقه بنظرات ناعمة، ورقَّت نبرة صوتها: «(داغر) حبيبي.. لازم تعذرني.. تصرفاتك أحيانًا بتجنني. نفسي تتغير.. نفسي»

قاطعها بحدة: «أنا كدة يا (سولاف).. ومش هتغير أبدًا. وقلت لك الحكاية دي بدل المرة ألف. أنا مش هتخلى عن (ألكسان)، ومش هسيب بلدي (أسيوط). أنا عشت كل حياتي هنا، وهموت هنا. اللي عاجبه على كده أهلًا وسهلًا.. واللي مش عاجبه...»

ترك جملته معلقة وهو ينظر باتجاه الباب. قضمت شفتها السفلى، ثم زفرت باحتقان: «بالله عليك يا (داغر).. شوف حواليك! جدران القصر هتنهار.. الرطوبة بتاكل فيها. عندك علم صيانة قصر بالحجم دا هيتكلف كام؟؟ انت تملك كل الثروة دي؟؟ ولا هتستنى لما الجدران تترطبق فوق دماغك انت والمحروسة بتاعتك!؟»

هتف وكأنه تذكر أمراً آخر: «آه صحيح.. نسيت.. إياكي تتكلمي عن بنتي بالطريقة دي تاني.. دا آخر تحذير»

ساخرة: «بتتكلم كأنها بنتك فعلًا.. انت صدقت نفسك ولا إيه!؟ صدقت الكذبة اللي كذبتها على البنت!؟ مش عارفة انت أقنعتها إزاي إن (مراد)

هو (داغر)!! خطر في بالك أن البنت مش بالغباء اللي انت متخيله دا، ويمكن تكون عارفة كل حاجة؟؟»

ضغط على أسنانه بوحشية، جامعا أصابعه في قبضة متعانقة أمام فمه: «مش محتاج إنك تفكريني في كل وقت. إنتي اللي لازم تفتكري دائمًا أن (أماليا) هي بنتي.. وهتفضل بنتي وإنتي حرة في إنك تقبلي وجودها أو رفضه. وليكن في معلومك.. أنا مش هقبل بزوجة رافضة وجود بنتي في حياتي»

رفعت أحد حاجبيها بترفع لا تصدق ما تسمعه: «انت بتتكلم بجد!؟ انا مش مصدقة! انت بتتخلى عني أنا عشان البـــ...

توقفت عندما احتدت نظراته بتهديد، فأومأت: «أوك يا (داغر).. أنا مش هسمح لك تتراجع عن خطبتنا ووعدك لي بالجواز بالسهولة دي.. اتفقت انت وبابا، وانت رجل معتز بنفسه وبكلمته، ومش ممكن ينقض وعد وعده لراجل وهو بيموت.. ولا إيه يا... (داغر) بيه؟؟»

تمتم من بين أسنانه: «طبعًا لأ يا (سولاف).. دي مش أخلاقي. ولكن لو انسحبتِ إنتي من ارتباط متأكدة أنه هيسبب لينا أحنا الاتنين البؤس...

قاطعته بهيام زائف: «بؤس إيه يا حبيبي!؟ إيه تراجيديا الأبيض والأسود اللي بتتكلم بيها دي!؟ أنا بحلم باليوم اللي هيجمعنا فيه سقف واحد.. انت مش عارف أنا بحبك قد إيه؟؟»

رد بنبرة مغيظة: «السقف اللي فوق راسك دا هو السقف الوحيد اللي هيجمعنا لو عاجبك»

ثم نظر لأعلى، فتبعت نظراته وهي تعض بقسوة على شفتها السفلية.

حدجته بنظرة متحدية: «أي مكان انت فيه يا (داغر) هو جنة.. ومش هيهمني إحنا هنعيش فين.. بس يا ريت نحدد معاد الدخلة وكتب الكتاب؛ (فؤاد) أخويا واجع دماغي بالموضوع دا.. هو مستعجل أوي خاصةً إنك كنت وعدت إنك هتحدد المعاد بعد رجوعك من لندن، وأهه حضرتك رجعت واستقريت ومعاك المحـــ... (أماليا)»

ثم اتسعت ابتسامتها الباردة بانتظار رده. أومأ بتفهم: «قريب إن شاء الله.. فيه شوية تصليحات للجانب الغربي من القصر لازم أعملها؛ لأنها أكتر مكان متضرر كونه الأقرب للنيل زي ما انتي عارفة»

أمسكت بحقيبتها، وقد غرزت أظافرها الطويلة المطلية في جلدها الطبيعي، ووقفت منتفضة تحاول ابتلاع غضبها: «أوك يا (داغر).. زي ما تحب.. وقت ما تخلص كل الحجج بتاعتك هتلاقيني منتظرة ومستعدة. ودلوقت لازم أمشي عشان اتأخرت على معاد الكوافير»

ثم انحنت لتقبل شفتيه، فحرك وجهه لتقع قبلتها على وجنته الخشنة.

سألته بتقزز: «إمتى آخر مرة حلقت فيها دقنك دي؟؟»

ـ «من فترة طويلة أوي.. بفكر أخليها كده.. عندك مانع؟؟»

مطت شفتيها، وبهزة رأس صغيرة: «دي دقنك انت حر فيها.. أتضايق أنا ليه!؟ بس منظرك بدقنك الطويلة مع الجلابية اللي لابسها طول الوقت... انت فعلًا بقيت إنسان غريب جدًا وكأنك في حداد. أنا فاكرة إنك مكنتش عامل في نفسك كدة بعد وفاة (مراد)»

ظل يرمقها بنظرات فارغة حتى استسلمت: «أوك.. أشوفك في الحفلة الخيرية اللي عاملها المحافظ.. أكيد وصلك كارت دعوة!»

ـ «أه أكيد.. سيادة المحافظ كلمني بنفسه.. أنا مش بفوت أي مناسبة هيكون فيها مصلحة للبلد»

تبرمت بزهق: «خدها مني نصيحة.. بلاش الكرم الحاتمي بتاعك دا وانت بتمضي شيك التبرع. انت وقصرك الخربان دا محتاجين لكل قرش.. باي باي (داغر) حبيبي.. سي يو»

أطلق نفسًا عميقًا؛ لشعور عارم بالراحة بدأ بالتغلغل لأطرافه، وكأنه كان سجين غرفة ضيقة، وتقام عليه حفلة لمن يرشقه بأكبر عدد من الدبابيس.

أطلت (أماليا) من الباب برأسها، تتبعها رأس العجوز الأبنوسي.

ـ «هي مشيت؟؟»

أومأ (داغر)، فدخلت الصغيرة، تتبعها العجوز التي صاحت: «والله ماني عارفة انت بتتحملها إزاي السوفلافة بتاعتك دي!! حسبي الله ونعم الوكيل في لسانها! هو متبري منها، ولا كانت المزغودة الداية سحبتها منه، ولا هي

تربية مين!؟ هه!؟ منك لله يا (شفيقة) يا بنت (محروسة)! إنتي اللي بليتينا بالبلوة المسيحة دي!»

زمجر (داغر) يكتم ضحكه بصعوبة، ليلفت انتباهها لوجود (أماليا): «(بخيتة)..»

هتفت بضجيج: «(بخيتة) (بخيتة) (بخيتة).. انتم هتجننوا (بخيتة) معاكم! وانت بتداري على مين يا بن سيدي وتاج راسي!؟ بتك الفصيحة (أمال) اسم الله عليها عارفة كل حاجة»

حدج (أماليا) بتساؤل: «عارفة!؟ عارفة ايه؟؟»

هتفت (أماليا) وهي تقلب عينيها: «عارفة إنها مش بتحبك.. بس هي بتحب القصر عشان تبيعه وتكسب منه»

صاح حانقًا: « (أماليا).. كفاية! حذرتك قبل كدة إنك تتدخلي في كلام الكبار»

احتجت الصغيرة: «بابا.. انت سألتني وأنا جاوبتك. فين المشكلة!؟ وإنتي يا دادا (بخيتة).. لآخر مرة اسمي هو (أماليا) مش (أمال). يلا بينا أنا جعانة، وممكن آكل الكحروت بتاعك وأمري لله»

هتفت (بخيتة) ضاحكة ليظهر فمها الخالي من الأسنان: «اسمها Egg يا بت سيدي»

ضحك معهما حتى اصطحبت العجوز الفتاة وانصرفتا، وعاد للوحدة تلتهم ذكرياته التي أصبح لا يعيش إلا عليها.

طرقات على الباب، فأذن له بالدخول.

- «القهوة سيدي»

- «ادخل يا (سوار).. قهوتك اتأخرت قوي»

رفع (سوار) حاجبيه حتى اصطدما بشعره المجعد الحالك السواد: «أنا!؟ أنا اتأخرت يا سيدي!؟ والله دي مش ممكن تحصل أبدًا إلا على جثتي. أول ما البرنسيسة الصوغيرة قالت لي كان من دقيقتين بس، وعشان (سوار) عارف أن سيده (داغر) عنده صداع دايمًا، طرت على جناح الريح ومعايا القهوة والمسكن كمان»

تناول (داغر) منه الحبات، ودفعها لحلقه يتجرعها دفعة واحدة، قائلًا بامتنان: «انت ملاك حقيقي يا (سوار)»

قهقه (سوار) ضاحكًا، فظهرت أسنانه البيضاء اللؤلؤية براقة من بين سواد وجهه الأبنوسي كأمه (بخيتة): «وهو فيه ملايكة وشهم بلون الكور يا سيدي!؟ الله يحظك يا شيخ»

- «السواد سواد القلب يا (سوار).. وانت عندك قلب أنقى من الحليب»

انحنى (سوار) باحترام: «ربنا يخليك يا سيدي، ويخلي لك البرنسيسة الصوغيرة.. همر عليك الساعة تسعة عشان العشا.. تؤمرني بحاجة تانية؟»

ـ «مفيش داعي يا سوار.. هنام خفيف الليلة.. يمكن أعرف أنام»

ـ «ألف سلامة عليك يا سيدي. عاوز مني حاجة تانية؟»

ـ «لا شكرًا. ولا أقولك... قول لبخيتة متنساش تحمّي (أماليا) و...

أكمل سوار ضاحكًا: «وتحكي لها حكاية قبل النوم.. وتغطيها كويس عشان هوا الفجر.. وتحط لها الناموسية فوق فرشتها. والله حفظت الدرس يا سيدي.. أقسم بالله حفظته.. إن شاء الله يحمي لك المحروسة (أمال) من شر حاسد إذا حسد»

وانصرف وهو يهز رأسه ضاحكًا، خابطًا كفيه ببعضهما.

تنهد (داغر) وهو يرشف فنجان قهوته بتلذذ، وهذه المرة اقتحم تفكيره (بخيتة) وابنها (سوار). وَلَدَتْ (سوار) في هذا القصر، وعاشت (بخيتة) طفولتها وشبابها بين جدرانه الشامخة.. شهدت مجده، وها هي تشهد اقتراب زواله!

دائمًا ما يشعر بنظراتها على الجدران والأسقف، وكأن بينهما حديث خاص دام لسنوات وسنوات، أو كأن الجدران تطمئن على وجودها، و(بخيتة) ترد عليها أنها صامدة، وتسألها الصمود حتى يضم ترابه رفاتها.

تنهد مفكرًا: "لابد أن أصنع شيئًا". ربما لو تقدم بطلب لوزارة الثقافة لاعتبار القصر أثرًا تاريخي، وبالتالي يساعدونه على تنكيسه قبل أن ينهار. لقد حاول كثيرًا الصمود، ولكن كما قالت (سولاف)، يحتاج لملايين من

الجنيهات حتى يعيش مائة سنة أخرى. فكرة البيع بعيدة عن أفكاره تمامًا؛ هذا الأثر الجميل يجب أن يبقى ليحكي للأجيال القادمة على عظمة مجد آخذ في الزوال، ليحل محله غابات أسمنتية كهياكل عظمية بلا أرواح.. أما قصره (ألكسان)...

تأمل من حوله، فلم تر عيناه الشقوق الممتدة في الجدران، ولا الرطوبة التي تنهش فيها حتى تقشرت. كل هذه الزخارف تمثل روح وقلب القصر. عمل قام به فنانون رغبوا أن تصمد أعمالهم مئات السنوات، وكادوا أن ينجحوا لولا التخلف والرغبة المسعورة خلف المال. والأمثلة قريبة: ابن عمه (فؤاد) أخو (سولاف) باع قصره وقبض الملايين. لم يشعر بأي وخزة ضمير، أو بالألم الذي اجتاح قلب (داغر) عندما رأى الجرافات تهدم القصر الأثري، ليتحول لكومات هائلة من الحجارة الصماء. آه لو كان ينطق! لصرخ مولولًا. تمسّك (داغر) بمقعده بقوة حتى ابيضت مفاصله، وهو يهتف بإصرار: «لأ مش ممكن دا يحصل لـ (ألكسان)! لازم ألاقي حل قبل ما...

*****

(٨)

اختلاف مذهل تمامًا بعد ساعات طويلة من الطيران متمتعة بتكييف الطائرة البارد، ثم الشواء تحت شمس الظهيرة الحارقة! تقف خارج صالة الوصول تنظر حولها بعينين مغروقتين، لا تكاد تسمع ولا ترى من حولها. سيارات أجرة تقف أمامها، كل سائق يحاول الحصول عليها. حمالون ينادونها لتسمح لهم بحمل حقيبتها اليتيمة للسيارة الأجرة. نسمات من الحر القائظ تلطم وجهها، تكاد تحرق رئتيها، ولكنها لم تهتم؛ لقد اقتربت. أصبح ما يفصل بينها وبين (أماليا) ابنتها الحبيبة مجرد أميال قليلة. أفاقت من شرودها على لكزات تنغز ذراعها، وسائق السيارة الأجرة يناديها باللهجة الصعيدي: «إنتي كويسة يا مودام؟»

ردت بالإنجليزي: «نعم.. هل تصطحبني لقصر (ألكسان) لو سمحت؟»

حك السائق لحيته الخشنة، التي لم تبدو واضحة بين معالم وجهه الأبنوسية الجميلة، ثم التفت لصديقه سائق الأجرة الآخر ليستعلم منه، ثم هز الاثنان رأسيهما. مدت يدها بورقة العنوان قائلة: «هذا هو العنوان»

قرأ السائق الورقة، ثم اتسع فمه عن صفين من الأسنان اللؤلؤية الناصعة: «وليه ماجلتيش من الأول!؟ دا جصر (داغر الأسيوطي). يا محاسن الصدف! شوفي أنا كنت رايح هناك من الأصل يا سبحان الله! تعالي أوصلك»

أمسكه السائق الآخر من ذراعه: «استنى عندك يا أخي.. المودام هتركب معايا أنا»

اعترض بانفعال: «وليه ان شاء الله!؟ هي سألتني أنا في الأول»

ـ «يا شيخ سبحان الله! بس هي كانت بتبص عليّ وعلى عربيتي»

ـ «انت يا خروف يا حلوف انت!؟ هو كل واحد يبص على عربيتك المصدية دي معناتها إنه عاوز يركب معاك!؟ يا ابن الحلال عربيتك محتاجة أربع عجلات عشان تمشي من أساسه. سبحان الله عليك!»

ـ «أنا عربيتي أحسن من عربيتك اللي بتجرها بحمار دي. يا سبحان الله!»

ـ «انت يا شيخ.. ما تتجي ربك بأمانة. المودام سألتك انت ولا أنا؟»

انتبها على صرختها من وسط شجارهما: «بس انت وإياه! وجعتوا لي راسي! شو هاد يا!؟»

شهق كلاهما بصوت واحد: «إنتي بتتكلمي عربي!؟ سبحان الله!»

رمقتهما بنظرة تعالي، وأمسكت بذراع حقيبتها الكبيرة، وسحبتها خلفها حيث سيارة أجرة تقف بمبعدة عنهم. انحنت لتنظر للسائق من نافذته: «قصر (داغر الأسيوطي)»

أومأ السائق، ثم ترجل ليساعدها في وضع حقيبتها فوق ظهر السيارة المرسيدس المتهالكة. أعجبتها ملابسه؛ كانت جلباباً طويلًا فضفاضًا، وعمامة

كبيرة بيضاء تلف رأسه، على عكس السائقين الآخران كانا يرتديان قمصان ملونة وسراويل عادية. هتف السائق:

«ماتاخديش على خاطرك منهم يا مودام.. دول من النوبة جلبهم أبيض زي الفل وبيتصرفوا على نياتهم.. بيجوا ساعات يلجطوا رزجهم.. دلوك هتلاجيهم واجفين يشربوا شاي مع بعض ولا كأن حاجة حوصلت»

ألقت نظرة أخيرة عليهما، وهما يحملقان فيها بغيظ، قبل أن تدخل للمقعد الخلفي للسيارة، والتي كما منظرها الخارجي المتهالك، كذلك كان فرشها.. وتعجبت كيف ما تزال تسير في طرقات مدينة أسيوط بهذه الكفاءة، بالإضافة لمهارة السائق في تجنب كل ما يعترضه في الطريق. فتحت النافذة بأعجوبة تحاول استراق أي نسمات هواء، ولكن أمنياتها ظلت مجرد أماني.

حدقت باندهاش متزايد في مباني مدينة أسيوط العريقة، والسيارة تسرع بها في طرقاتها الأسفلتية. الشمس كانت شديدة السطوع، وهذا شيء لم تعتده في مدينتها الضبابية؛ لذلك تمسكت بنظاراتها ولم تخلعها. كانت الفوارق تتوالي بين المدينتين، ولدهشتها كفة الميزان كانت تتأرجح باتجاه المدينة العريقة! فجأة نسمات هواء رقيقة ذات رائحة مميزة بدأت تضرب وجهها، فدققت النظر لتراه. اخترقت عَظَمته كل عظمة في جسدها الرقيق؛ حتى لم تستطع وصف جمال ما ترى بالكلمات. كان عظيمًا بالفعل كما

سمعت عنه، ورددت بدون وعي وهي تلتهم بعينيها كل تفاصيله أثناء سير السيارة بجواره على طريق الكورنيش: «نهر النيل العظيم!»

سمعها السائق، وردد خلفها بفخر وهو يسترق لها النظرات من خلال المرآة الأمامية: «عمرك ما هتشوفي زيه في الدنيا كلاتها»

انتابها فضول مستعر لتترجل من السيارة وتسير بدون هدى على الكورنيش، تلقى بهمومها الثقيلة في مياهه الزرقاء العميقة. أغمضت عينيها لتتذكّر نفسها بسبب وجودها. السبب الوحيد لوجودها. رغم أنها لا تدري كيف ستتمكن من إقناع (داغر) أن يعطيها ابنتها، ولكنها لن تتوانى عن فعل أي شيء لتحقق هدفها.

كل المعالم التي مرت عليها، والتي سمعت عنها، مثل (دير العذراء مريم)، (دير المحرق)، (لوحات حدود مدينة إخناتون)، (آثار كوم دارا) بعرب العمايم، (آثار الهمامية)، وقصور أسيوط المهملة. تذكرته عندما رأته لأول مرة. بعد أن أرسل لها (داغر) العنوان، قرأت كل ما وقع تحت يدها عن مدينة أسيوط؛ ربما لتتعرف على مكان نشأة الرجل الذي استطاع خداعها لشهور بادعاء أنه زوجها.

انتبهت للسائق المتململ: «جصر (ألكسان) يا مودام»

أنقدته أجرته بالعملة الصعبة، وترجلت لتجده قد سبقها وأنزل لها حقيبتها.

وقفت تشعر بقزميتها أمام عظمة هذا البناء الجميل. البناء الذي تركض في أروقته صغيرتها (أماليا) منذ شهور. منذ سرقها (داغر) كما سرق كل شيء جميل داخلها تجاهه. جرّت حقيبتها لتمر عبر البوابة الحديدية، التي تبدو أفضل حالًا من المبنى نفسه، وكذلك الحديقة الخضراء المحيطة بالقصر من جميع الاتجاهات. كان الاهتمام بنباتاتها وبأشجارها المثمرة يبدو جليًا. دمعت عيناها عندما وقعتا على لعبة (أماليا) ترقد على أرجوحة منجدَّة، يبدو أنه قد تم صنعها خصيصًا للصغيرة. تركت الحقيبة وتقدمت لتمسك باللعبة، ثم احتضنتها بقوة.

ـ «هي كمان اشتاقت لك أوي.. أوي»

التفتت بحدة، لتزداد نظراتها كرهًا، وهي ترمق الرجل الذي سرق -فكرت بألم- سرق أكثر بكثير مما يظن. تمسكت باللعبة وهي تقطع المسافة بينهما في أقل عدد من الخطوات، لتفاجئه بصفعة لم تبرد كل نيرانها المتأججة، ولكنها بدأت تضعها على أول الطريق الذي تسعى للوصول له: الحصول على ابنتها.

وضع يده على آثار الصفعة ثم تنهد: «القلم دا مش لأني أخدت (أماليا).. لأني أخدت حاجة تانية، يمكن مكانش ليا حق فيها. بس نصيحة مني: بلاش تجربي حظك مرة تانية. اتفضلي»

تسمرت مكانها لتهتف بالإنجليزية: «أين (أماليا)؟؟ أين ابنتي؟»

احتدت نظراته عليها. كانت تبدو أكثر هشاشة مما يذكر، ولم تنصفها البلوزة المتسعة ولا بنطلونها الجينز، ليضفيان عليها شيئًا من رونقها القديم. كل هذا الإهمال لأناقتها المعهودة لأنها فقدت ابنتها!!

تمتم بنبرة سرت الرعدة في أوصالها: «ممنوع هنا في القصر أي حد يتكلم بأي لغة تانية غير العربي!»

ثم سبقها بالمشي. توقف وكأنه تذكر أمراً: «توقعت إنك تكوني هنا من بدري. بعت لك الجواز من شهر تقريباً. بالنسبة لأم مشتاقة لبنتها توقعت إنك تكوني هنا تاني يوم؛ خاصةً إني حجزت لك التذكرة كمان.. ولا البرنس (غسان) مكانش قادر عل فراقك؟»

رفعت حاجبها باستهجان قائلة بالإنجليزية: «كيف تسول لك نفسك أن تفكر بي على هذا النحو!؟ ألم تذكّرني في رسالتك العظيمة أنني، رغم أن العقد المدني، ولكنني زوجتك؟ فكيف أكون...!؟»

ارتاحت أساريره بعض الشيء، عندما أدرك أن غضبها من اتهامه لا يعني إلا شيء واحد؛ أنها لا تزال (ديالا) التي عرفها. أفاق من أفكاره على سؤالها الذي طرحته بنبرة مترددة ومهددة بالدموع: «أنت لن تعطيني ابنتي.. أليس كذلك؟؟»

أخرج تنهيدة كبيرة: «إنتي إنسانة ذكية؛ سؤال زي دا مش لازم يخطر ببالك أبدًا، وكمان (أماليا)...

قاطعته ناحبة: «لو كنتُ ذكية كما تدعي، لما استطعتَ خداعي، ولعرفت أنك لا يمكن أن تكون (مراد) الذي أعرفه أكثر من أي إنسان. كيف آملت.. وحلمت.. وعشت الحلم الجميل!!؟ كنت أكثر غباءَ من أن أصدق أحاسيسي»

هز رأسه: «بلاش تظلمي نفسك. مش ممكن تتوقعي إن (مراد) يكون له أخ توأم شبهه للدرجة دي»

ـ «كل هذه المسرحية الكبيرة.. كي تسرق مني (أماليا).. ابنتي!»

ـ «لا يا هانم.. لكن عشان ترجع بلدها.. وطنها الأم.. وعشان أمنع محاولاتك المستمرة لمسح هويتها، وتحويلها لمسخ من غير روح ولا كيان»

هزت رأسها تعض على شفتيها بألم: «لا يمكن أن تنتزعها بهذا الشكل من بيتها وحياتها وأصدقائها لتزرعها في مكان... مكان كهذا! هي لم تعرف وطنًا غير لندن.. فكيف تفتقد مالا تعرف!؟»

شعر بغضب كبير من نظراتها المحتقرة للمكان الذي يعشقه، فانتفض باتجاه القصر قائلًا: «على فكرة أنا مش مجبر أسمع أي كلمة تانية. لو عاوزة اتفضلي ادخلي القصر، أو ارجعي للمكان اللي اخترتيه يكون وطن ليكي. بس أكيد مش ممكن هيكون وطن لبنتي أبدًا. وخليكي فاكرة.. إنتي اللي ضيعتي على نفسك فرصة إنك تكوني مع بنتك. أه وحاجة تانية.. لو نطقتي بكلمة واحدة بالإنجليزي جوة (ألكسان) مش هيعجبك رد فعلي»

ـ «أهذا تهديد!؟؟»

ـ «بالتأكيد»

راقبته باحتقان شديد، يتهادى بخطوات ثابتة على أرض أجداده، ورغمًا عنها طغى إعجابها به على أي مشاعر سلبية؛ فالرجل يكاد الهواء حوله يصرخ برجولته وبعنفوانه. كم يبدو مختلفًا عن الرجل ذي البدلة ورباط العنق الذي عرفته! وكم يبدو بعيد الشبه عن (مراد) المزيف! وبعيد بعد السماء عن الأرض عن (مراد) الحقيقي! ربما لو كانت قد رأته بجلبابه الفضفاض ولحيته التي تغطي معظم وجهه ما استطاع خداعها لحظة واحدة. رغم تطابق ملامحه مع (مراد)، ولكن هذا الأخير كان لين القسمات، عيناه لا تنطق بالصلابة كما (داغر). كان أقل من رجل، على عكس (داغر) بمئة رجل.

رغبت بصفع نفسها عندما فوجئت بأفكارها التي سبحت في إعجاب (داغر)، وليس كما يفترض أنها جاءت لتختصم معه لا لتعشقه.. مرة أخرى! لحقت به للداخل بخطوات مصرة على إنجاز هدفها. لحظة دخولها القصر شعرت وكأنها انتقلت لعالم آخر. ولدهشتها تملكها إحساس قوي أنها جزء من هذه العراقة المتأصلة في كل حجر من هذه الجدران الشاهقة، ومن كل قطعة كريستال من هذه الثريا الضخمة، وكل خيط من هذا السجاد العجمي، الذي ما يزال ينطق بماضيه المشبع بالفخامة.

جفلت من صوته الذي أخرجها من عبق التاريخ: «مكتبي من هنا.. اتفضلي»

تسمرت مكانها تحدق فيه: «بدي شوف بنتي.. هلأ!»

هز رأسه بشفاه ممطوطة: «مش قبل ما نتفق. أنا مش مستعد إن بنتي تتحمل تقلبات مزاج حضرتك»

لوحت له بإصبعها بتهديد: «انت... انت بتخاف على بنتي أكثر مني أنا!!؟ أنا إمّا ما في حدا في الكون بيعرف بنتي قدي! وما بيعرف صالحها قدي! وانت مين!؟ قاعد تقول "بنتي بنتي"! من إمتى بتكون بنتك!؟ من كام شهر بس ما كنا حتى سمعنا فيك! حتى (مراد) ما عمره طرا سيرتك وانت أخوه توأمه! انت مجنون! و(مراد) كمان مجنون! وكل اللي بيحصل هون جنون في جنون»

فتح باب المكتب، ثم أشار لها بصمت لتتقدمه. أدركت أنها مرة أخرى ستتنازل لأنه لن يتراجع. كل هذا التصميم المرسوم في ملامحه الشديدة العمق، الشديدة السمرة.

ضربت برأسها ومضة تذكرتها الآن فقط. (مراد) لم يكن أسمر البشرة لهذه الدرجة؛ معظم حياته قضاها في ضباب لندن، أما (داغر) فقد قضى كل حياته تحت هذه الشمس المتوهجة الساطعة؛ من الطبيعي أن يمتلك مثل

هذه البشرة. لم تستطع إلا أن تلعن غباءها مرة أخرى لعدم ملاحظتها هذا الفارق الجوهري.

تقدمت أمامه مرفوعة الرأس لتوصل له رسالة ما. أومأ برأسه بشبح ابتسامة لانت معها صلابة فمه المزموم.

لم تتوقع أقل مما ترى.. مكتب من خشب الصندل الطبيعي موشى بزخارف مذهبة، مقاعد جلدية تبدو أكثر حداثة من المكتب نفسه. وكأنه قرأ التساؤل في نظراتها المعبرة فأجابها: «الكراسي الأصلية تعتبر قطع أنتيك، بحافظ عليها مع غيرها من الأنتيكات في مكان يحفظها من التلف»

أومأت: «أه.. ما تخيلت هاي الكراسي تكون مع مكتب بهاي الفخامة.. مبين عليهم الحداثة»

ـ «نظرة عينيكي أول ما دخلتي (ألكسان) وكأنك معجبة»

ـ «ومين ممكن يتطلع لكل ها التاريخ وما يعجب فيه!؟ ما بالك لما ألاقي حالي واقفة حده؟ بيني وبينه ولا شي.. بتنفسه»

ردد بإعجاب: «لدرجة إنك ما نطقتيش بحرف إنجليزي واحد من لحظة دخولك من باب القصر»

رفعت أكتافها بهزة بسيطة: «إيه.. حسيت حالي بكون مجرمة بحق المكان.. انت عايش بمتحف!»

ـ «كل دا هيروح لـ (أماليا).. كل القصر ملكها»

التفتت له بحدة: «(أماليا) ما بدًّا شي منك ولا من غيرك.. اعتقنا لوجه الله!»

ـ «مش هتقدري تحرميها من ميراثها الطبيعي»

ـ «اسمع يا (داغر) بك.. لا أنا ولا بنتي بدنا شي.. بس آخدها لحضني وترجع معايا لمكانها الطبيعي. وأوعدك ما راح أقدم أي شكوى ضدك»

تساءل ببرود، وهو يجلس خلف مكتبه الضخم، عاقدًا أصابعه مع بعضها: «بأي تهمة إن شاء الله؟»

ـ «انت خطفت بنتي من حضني، ونقلتها من قارة لقارة تانية بدون علمي. لو ما بتعرف يا حضرة الأبضاي، هايدي جريمة بيعاقب عليها القانون الدولي»

ـ «مافيش أي قانون هيحاكم أب عشان رجّع بنته لبلدها»

ضاقت عيناها، وقد بدأ صدرها يضيق بأنفاسها المتلاحقة: «انت شو!؟ انت صدقت حالك!؟ انت مانت أبوها.. ما بعرف وينه هلا.. بس انت حيا الله عمها اللي ما بتعرفه»

توهجت عيناه ببريق غاضب، متمتمًا من بين صلابة شفتيه: «عقلك الصغير صوّرلك للحظة إني كان ممكن ألعب اللعبة دي كلها لو كان (مراد) عايش على وش الدنيا!؟»

اشتعلت أفكاره، وذكرياتهما معًا تعود بنشاط وهو يصيح بانفعال: «ولًا يمكن تكوني فاكرة إني أشبه الشيء اللي كنت معتبراه راجل، لدرجة إنك فكرت تتجوزيه وتخليه يحل محل أخويا في بيته، وفرشته، وبنته!»

شحب وجهها، وكأن آخر أمل واهي تمسكت به غرق هو الآخر في بحيرة من الضياع: «حكيك ماله غير معنى واحد.. إن (مراد) ميت؟؟»

أخرج زفرة حارقة: «أيوة مع الأسف.. دي الحقيقة الوحيدة في كل اللعبة السخيفة دي. و(أماليا) بنتي زي ما هو موجود في الأوراق الرسمية. الأوراق التي وقّعتِ عليها بنفسك.. زي ما وقّعتِ على عقد جوازنا»

شهقت بانفعال: «كذب! ما اتزوجتك! انت كنت منتحل شخصية (مراد) وقتــا، واتزوجتني باسمه»

تمتم بنبرة انتصار متشفية: «كنتي غرقانة في غرامي يومها، وما أخدتيش بالك من توقيعي ولا جواز سفري الأصلي؛ بمعني إني اتجوزتك باسمي.. (داغر).. ووقّعت على قسيمة الجواز باسمي.. (داغر).. حتى الوصاية نقلتها بنفس الاسم. اسم (مراد) مش موجود في أي ورقة رسمية تخص (أماليا) أو تخصنا إحنا الاثنين»

جفت الدماء في أوردتها، وهي تتخيل نفسها كالبلهاء توقع على كل الأوراق التي قدمها لها، بدون أن تتوقف ولو لمرة واحدة لتقرأ محتواها. هتفت لتنفي عن نفسها التهمة: «مغتر كتير بحالك يا (داغر) بك. بيتهيأ لك إني

واقعة بغرامك! ونسيت إني ما تزوجت (مراد) إلا بعد قصة حب طويلة؛ بمعنى إني ما حبيت غير زوجي.. وظهورك على حقيقتك ما محا ذرة من حبي لـ (مراد)»

دارى خيبة أمله بمهارة بزفرة طويلة: «مسكين (غسان).. لو يعرف إنه مكانش عنده أي فرصة معاكِ.. كان يمكن الوضع يكون مختلف»

واجهته بصوت جاد: «شو بدك مني!؟؟ ومن بنتي؟؟»

ـ «كل اللي أنا عاوزه موجود تحت سقف قصري»

لم تسمح له بإرباكها، وهي تهتف: «شو بتقصد؟؟»

ـ «اسمعي يا (ديالا).. قطعتِ كل المسافة دي عشان تشوفي بنتك. عندك كامل الحرية إنك تقضي معاها أي وقت إنتي عاوزاه.. وفي الآخر لما تحبي ترجعي لبلدك هترجعي لوحدك، ودا اختيار من الاختيارات المتاحة قدامك»

رفعت أحد حاجبيها باستهزاء: «والخيار التاني..؟؟»

ـ «إنك تبقي معاها، وتنسي (إنجلترا) و(ويلز)، وكل حياتك هناك كمغتربة، وتعيشي هنا في بلد بنتك ووطنك الأصلي»

ـ «مستحيل! انت كيف تطلب مني هيك طلب!؟ مافي أصلًا أي وجه للمقارنة. وبلدك المتخلف هذا مش ممكن يكون...

وقف فجأة، لتجفل من معالم وجهه التي انقلبت لعواصف هائجة: «كفاية كدة! إهانة بلدي إهانة لشخصي. المقابلة انتهت. ممكن ترتاحي في جناح الضيوف، و(أماليا) هتشوفيها على الغدا»

وقفت لتجابهه: «انت مين مفكر حالك!؟ الحاكم بأمره ولا شو!؟»

جالت عيناه بمحبة رقت لها حدة نظراته، قائلًا: «بين أكوام الحجارة اللي حوالينا دي، أيوة.. أنا الحاكم بأمره لو المسمى دا يرضيكي. ووقت الكلام معايا انتهى»

زفرت الهواء من صدرها، ثم اتجهت نحو الباب.. وقفت أمامه وكأنها تفكر إن كانت ستمسك بالمقبض وتديره أم...

التفتت له لتفصح عما يؤرقها: «انت طلقتني؟؟»

* * * * *

(٩)

ـ «انت.. طلقتني؟؟»

ـ «إنتي عاوزة تتطلقي؟؟»

أومأت برأسها، قائلة بشفتين مبتلتين بدموعها: «في حياتي ما تمنيت بعد ضم بنتي لصدري غير أمنية واحدة.. إني أتخلص من قيودك المزيفة. حتى إني ما بعرف ليش اتزوجتني.. كان ممكن تكمل لعبتك الحقيرة بدون زواج»

ـ «أيوة طبعًا كان ممكن.. بس اللي تاه عن بالك إني رجل مسلم، عربي. وجودي معاكي تحت سقف واحد مغري أكتر من وجود (زليخة) مع (يوسف) "ولقد همّت به وهمّ بها". وبما إني مش ممكن أكون في دين ولا أخلاق (يوسف)، فكان لازم أتصرف في إجراء يحمينا من الخطيئة»

ـ «وصفك مثالي.. وحطيتني في خانة امرأة العزيز الفاسقة اللي صممت على إغواء الرجل المثالي، ومفكر حالك الرجل المثالي!؟»

ـ «حاشى لله! الكمال لله وحده! وطبعًا مش ممكن أشبه نفسي بسيدنا (يوسف) عليه السلام. ولكن مش ممكن تنكري أن الإغراء كان موجود فعلًا، وكنتي معايا في كل خطوة.. لحد ما وصلنا مع بعض لـــ...»

صرخت لتوقفه: «بيكفي! ما بدي أتذكر ولا لحظة من هاديك الليلة السودا! لو سمحت بدي أرتاح بغرفتي اللي حضرتك سمحت لي فيها، وغصب عني مش برضاي راح أضل أسبوع واحد بس هون. وما تتفائل كتير

ما راح أترك بنتي بدون معركة.. ما تحلم فيـا. ولمعلوماتك أنا معي مصاري كتير، وبقدر أرفع ضدك قضية وعشرة لحد ما آخد بنتي لحضني ولبلدا»

خرجت صافقة الباب خلفها، لتجفل عندما اصطدمت بشيء ما في طريقها. اعتذرت وهي تمسك بمن اصطدمت به، لتجدها فتاة عشرينية نحيلة، وقد غطت رأسها بخمار ملون، واتسعت شفتاها الغليظتين عن ابتسامة جميلة، أضاءت بأسنانها اللؤلؤية وجهها الأبنوسي.

ـ «ما تواخذيني.. ما شفتك»

أومأت الفتاة: «ولا يهمك يا ستو الهانم.. خدامتك (مصلية)»

اتسعت عينا (ديالا) بتساؤل: « (مصلية)!؟ هادا اسمك!؟؟»

أخرجت الفتاة صوت ضحكة ناعمة، مردفة: «نعم يا ستو الهانم.. جالِّي سيدي إني أوصلك لجناح الضيوف.. بس سيدي ما جالِّي على اسمك»

ابتسمت (ديالا) لفضول الفتاة الذي لم تجد فيه غضاضة أبدًا: «اسمي (ديالا)..»

وفجأة قرقعت الفتاة في الضحك. سألتها (ديالا) وكأن عدوى الضحك انتقلت لها: «وشو بيضحك في اسمي لها الدرجة (مصلية) خانوم!؟؟»

ـ «لا مؤاخذة يا ستو (ديلة) هانم.. أنا ما ضحكت على اسمك.. بس إنتي استغربتِ اسمي، واسمك هو الغريب!!»

ـ «اسمي ماهو غريب.. بس إنتي يمكن ما سمعتيه من قبل. هو اسم أصله عراقي، ومعناه (الأرض الخضرا)أو (أرض البرتقال)»

تلفتت حول نفسها، ثم اقتربت من (مصلية) هامسة: «بتعرفي بنتي (أماليا)؟؟»

أخرجت (مصلية) صرخة أفزعت (ديالا)، حتى اكتشفت أنها صرخة ابتهاج: «طبعًا البرنسيسة الصغيورة الله يحميها من كل شر.. ومن ميعرفهاش!؟ من ساعة ما دخلت الجصر ودخلت وياها الفرحة والأنس.. اللهم صلي على النبي.. يحرسها ربي من العين»

هتفت (ديالا) بفرحة عارمة: «ممكن تاخديني لحدها؟ الله يخليكي.. مشتاقة لبنتي كتير»

عبس وجه (مصلية) الضاحك فجأة، وانحنت لترفع الحقيبة عن الأرض، قائلة بنبرة جادة: «معرفش حد بالاسم دا يا ستو الهانم.. اتفضلي معايا هوصلك لجناحك زي ما سيدي أمرني.. وسِوس مش عاوزة أسمع منك ولا كلمة»

تعجبت (ديالا) من الانقلاب الحاد للفتاة، لدرجة أنها شعرت بالخوف. تبعتها لتصعد خلفها على الدرج الكبير الدائري، بأعمدته المصقولة من خشب الورد، والذي يربط بين الطابق الأرضي والأول، مع مجموعة هائلة من صور البشوات بأحجام كبيرة تغطي حوائط الدرج من أسفل لأعلى،

حيث استقبلتها مجموعة أخرى من اللوحات الطبيعية التي تبدو وكأنها مرسومة بريشة فنانين معروفين. ظلت تسير في ردهة طويلة مغطاة بالسجاد الأحمر العتيق، حتى وصلت لنهايته. فتحت الباب وأدخلت الحقيبة، ثم أشارت لها بدون أن تلين تضاريسها العابسة: «اتفضلي ادخلي.. معاد الغدا هرجع آخدك.. ما تتحركيش من مطرحك.. إنتي سامعة ولا أجول تاني؟»

هزت (ديالا) رأسها بقوة حتى خرجت الفتاة، فتنفست الصعداء متسائلة كيف أمكن ابنتها الصغيرة الرقيقة أن تعيش مع هؤلاء الناس!؟

كانت الغرفة عادية تمامًا، فتوقعت أنها إحدى الغرف التي تم نقل أثاثها لغرفة التخزين، غير أن السقف المزخرف لا تخطئه العين وإن كانت زخرفاته أكثر رقة من زخرفات الطابق الأرضي. تهالكت على الفراش الكبير بتنهيدة كبيرة. شوقها الكبير لأحضان صغيرتها دفع الدموع لعينيها؛ فأخذت تضرب بقبضتيها على الفراش، وهي تلعن (داغر)؛ فمنذ ظهوره والمصائب تتراكم عليها تباعًا.

* * * * *

دخلت (أماليا) للمكتب بعد طرقة خفيفة على الباب. تجهمت عندما لم يتلقاها بابتسامته المعهودة.

ـ «بابا.. مالك زعلان ليه؟؟ فيه حاجة حصلت؟؟»

رفع رأسه، وازدادت تعابيره حدة، مما أخاف (أماليا) كثيرًا.

- «حبيبتي.. عندي لك خبر سار، وخبر غير سار. عاوزك تسمعيني وتفهميني كويس جدًا»

- «أوك بابا.. أسمعك.. وأفهمك»

* * * * *

كان الحمام لا يبعد عن غرفتها كثيرًا، ولكنها لم تغب طويلًا؛ فقد مرت عليها (مصلية) وأخبرتها أن موعد الغداء بعد ربع ساعة، مما دفعها للإسراع. لقد حان الوقت أخيرًا! ستحتضن (أماليا) ولن تتركها أبدًا. ستنعم بملمس ابنتها الصغيرة ودفء أنفاسها. ارتدت أحد أثوابها على عجل. لم تتأنق تمامًا، وبالكاد وضعت مستحضرات التجميل لتخفي الهالات السوداء حول عينيها. وقبل أن تنقر (مصلية) على الباب، كانت تفتحه وتقف أمامها قائلة بسعادة ترفرف على صدرها: "خلّصت وجاهزة.. أماليا هون؟؟؟»

زغرتها (مصلية)، فتراجعت (ديالا) تضع يدها على فمها: «بعتذر.. ما قصدت.. امشي وأنا وراكِ»

وكأن الفتاة النوبية تعمدت أن تزيد من شوق (ديالا)، فكانت تمشي ببطيء كالسلحفاة؛ لعلمها أن هذه الأخيرة مجبرة لا مخيرة على اتباعها.

أخيرًا فتحت بابًا، خلفه كانت المائدة ممتدة، يجلس في طرفها (داغر) بكل هيبته وحيويته، وفي المقعد المجاور بالكاد ظهر رأسها الصغير بشعرها الأسود الناعم. هتفت (ديالا) وهي تزيح (مصلية) عن طريقها: «(أماليا).. حبيبتي!»

انتفضت (أماليا) ترد نداء أمها، وهي تترك مقعدها لتركض وترتمي في أحضانها.

لفّت (ديالا) ذراعيها حول صغيرتها، حتى صاحت الفتاة ضاحكة: «مامي.. مش عارفة أتنفس»

أبعدتها (ديالا) وهي تضحك وتبكي في وقت واحد.. تتفرس في ملامح ابنتها، ولدهشتها كانت تنطق بالحيوية والصحة.

ـ «حبيبتي.. اشتقت لك كتير. كيف طاوعك قلبك تتركيني وتروحي!؟»

مسحت الصغيرة الدموع عن وجنتي والدتها: «سامحيني يا ماما.. بس بابا أقسم لي إنك هتيجي ورانا.. وإنتي جيتي. شوفي ماما المكان.. جميل أوي مش كده؟ أجمل بكتير من (لندن) و(ويلز).. مش كده مامي؟»

استرقت نظرات خاطفة، وهي تضم ابنتها لصدرها مرة أخرى، متمتمة: «إيه طبعًا حبيبتي.. يا الله اشتقت كتير لريحتك! شو حلوة!»

أمسكتها من يدها تجرها نحو المائدة: «يالا ماما عشان نتغدى.. دادا (بخيتة) طبخت لنا النهاردة بنفسها، وصدقيني هي من زمان مدخلتش المطبخ.. يمكن من أيام زيارة الملك فؤاد الأول للقصر عام ١٩٣٥★»

رفعت (ديالا) حواجبها: «الملك (فؤاد) كان هوون!!؟ و(بخيتة) كمان!؟»

التفتت الصغيرة تنظر لوالدها: «هو دا اللي حصل دادي؟؟»

قهقه قائلًا بنبرة تسلية: «مش بالضبط.. لكن الحقيقة الوحيدة في معلوماتك إن الملك فؤاد كان في زيارة لـ (ألكسان) في الوقت دا.. ولكن

(بخيتة) عملت إيه؟؟ مافيش عندي معلومة واضحة هي كانت بتحكي لي أنا و(مـــ...

توقف لحظة يتمالك أنفاسه. لاحظت (ديالا) زلة لسانه، رمقته بنظرة غاضبة، فأكمل غير مبالي: «كانت بتحكي لي نفس الحكاية، وكنت بصدقها طبعًا.. فيه حد يقدر يكذب دادا (بخيتة)!؟ (أملي) حبيبتي وسّعي لماما هتقعد جنبي على السفرة»

رمقتهما (أماليا) بنظرات شقية، توردت لها وجنتا (ديالا)، وازدادت تحرجًا عندما جذبت لها الفتاة المقعد، وهتفت: «اقعدي يا ماما.. إنتي مكسوفة من بابا!؟ دا بابا!»

وقهقهت الصغيرة وهي تجلس جوارها.

ظلت (ديالا) تحدق بابنتها باستغراب، ثم حولت نظراتها لـ (داغر). كان يرفع الطعام لفمه. اتسعت ابتسامته عندما أدرك ما تفكر فيه. مضغ طعامه على مهل ثم قال: «مكانش ممكن تصدقي إن (أماليا) ممكن تتآلف مع المكان بالشكل دا.. وكمان اللغة»

سألته مبهوتة من قدرته على قراءة أفكارها: «انت... كيف عرفت!؟»

أجابها مقلدًا عبد الوهاب: «متعرفيش أني أقدر أقرا أفكارك!؟ ومن عينيكي أقدر أقولك كل أسرارك!؟»

ثم أردف بنبرة جادة: «كُلي.. شكلك مأكلتيش وجبة محترمة من زمان»

أومأت بدموع جافة، وهي تتأمل (أماليا) تلتهم مافي طبقها بشهية واضحة:
«من يوم ما ســرقــ... ما أخدت مني بنتي»
انتهت حصة العذاب، ولم تستمتع فيها بالطعام رغم أنه بدا شهيًا جدًا؛ ولكن معدتها المتقلبة أبت أن تزودها بأي طعام. لاحظ (داغر) عزوفها عن الأكل ولكنه لم يعلق. بعد الطعام استأذنت منه لتصطحب ابنتها لغرفتها:
«بدي أقضي وقت مع بنتي لحالنا بدون عيونك ما ترصد حركاتنا»
أومأ لها بهدوء وهو يرمق (أماليا) بحب. راقبهما تنطلقان بسرعة وكأنهما على وشك الإفضاء كل واحدة للأخرى بأسرارها.

*****

لم تعرفها. لم تكن ابنتها التي ولدتها وظلت أمام عينيها يومًا بعد يوم تكبر لحظة بلحظة. تغيرت أفكارها، لهجتها، إشراقها. تتحدث عن كل ما حولها بحماس التمع بريقه في حدقتيها بتألق الإثارة. لم ترغب حتى بالتفكير في العودة لإنجلترا. صمّت أذنيها.
ـ «لا.. لا مامي مش ممكن.. مستحيل. شوفي حواليكِ.. أنا هنا بتكلم عربي بحرية بدون ما تكون جنسيتي العربية تهمة لازم أتبرأ منها، وبدون ما ينادوني بالإرهابية»
شهقت (ديالا): «وإمتى دا حصل؟؟»

تنهدت (أماليا) بحزن: «في المدرسة.. لما واحد من أصدقائي عرف إني من أصل عربي، قال للجميع، ومن وقتها وأنا مش بطيق المدرسة»

ـ «ليش ما خبرتيني؟؟»

ـ «عشان تحاصريني أكتر وأكتر؟ ماما إنتي عمرك ما اتنازلتي ومش هتتنازلي. إنتي عاوزاني إنجليزية في كل حاجة، وعمرك ما سألتيني أنا عاوزة إيه.. بس اللي أنا عاوزاه لقيته هنا في مصر.. في (أسيوط)»

ـ « (أماليا)! إنتي شو بتحكي!!؟ من فين جبتي كل ها الكلام الكبير!؟؟ إنتي بنتي الصغيرة.. كيف كبرتي كل ها الأد في شهرين بس!!؟ بس ما بهمني.. أنا ما بقدر عيش من دونك، وإنتي كمان، وهو دا المهم.. وأي مكان بكون فيه إنتي كمان لازم تكوني فيه. (إيمي).. حبيبتي»

ـ «أيوة مامي.. لازم نكون سوا مع بعض.. عشان كدة إنتي لازم تعيشي معانا هنا.. هنا أجمل بكتير من (إنجلترا). صدقيني مامي بليز»

انهار عالمها فجأة. لم يكن (داغر) الذي حصنت نفسها لمحاربته خصمها الوحيد؛ ابنتها الصغيرة أيضًا! لقد أوغرها ضدها. غسل مخها وأفكارها بقيمه ومعتقداته المتخلفة. كل ما بنته من أجل مستقبل مشرق لابنتها تهدم في لحظة.

* * * * *

في ظلام الليل الدامس الصامت إلا من نقيق الضفادع تعزف سيمفونيتها الليلية المعتادة، تصل أحيانًا لدرجة الضجيج وأحيانا تكون كالهمس. ولكنها لم تسمع أي شيء.

كانت تتمشى سارحة في أفكارها الكثيرة. عبق زهور البرتقال يكاد يثملها، بينما رائحة ثمار المانجو المدلاة من أشجارها المنتشرة في كل مكان جنباََ إلى جنب مع أشجار البرتقال، تكاد تدفعها لتلتقط أحد هذه الثمار لتلتهمها. يبدو أنه ضبطها تغازل إحدى هذه الثمار.

ـ «مش هرفع عليكي قضية لو أكلتيها؛ إنتي ما أكلتيش كويس على الغدا»

وخرج لها من الظلام، ليفرض عليها حصاره المرئي والحسي.

ـ «أنا ما بشتهي زادك»

سألها بدون تصديق: «والله؟؟»

مد يده ليلتقط أحد الثمار الكبيرة بدون عناء، ثم قدمها لها:

«إديني الأمان وأنا أفتحهالك وأأكلهالك بإيدي»

صاحت كاذبة في حربها الأزلية مع مشاعرها: «ما بحب المانجا.. يمكن البرتقال شوي.. بحب مزازته. المانجا حلوة كتير على ذوقي»

ـ «للأسف.. إحنا في الصيف.. المانجا هي الموجودة دلوقت.. البرتقال فاكهة شتوية.. ممكن دلوقت تستمتعي بعطر زهوره لما نسمات الهواء تهب من

مية النيل العذبة. غمضي عينيكي واستمتعي.. كل ما أحب أفتكر أيامنا مع بعض كنت بعمل كدة. ريحة زهور البرتقال بتفكرني بيكي»

ـ «فيني أنا!!؟»

مد يده ليدفع خصلة شعرها خلف أذنها، متابعًا: «أيوة يا (دِي).. إنتي فاكهة شتوية بتتألقي في الشتا بس. الصيف والحر بيخلوكي دبلانة.. ولا دبولك دا ليه سبب تاني؟»

تراجعت عن ملمس أصابعه الحارقة، وأجابت بارتباك زاد من قلقه:

«شو بتقصد!؟ شو سبب تاني وسبب أولاني!؟ ولو حكينا عن الأسباب، انت التاني دبلان وما انت على حالك اللي بعرفه»

هتف بإجابة صدمتها، ثم تركها وذهب ليبتلعه الظلام كما أوجده: «اهتمي بشؤونك ومالكيش دخل بشؤوني»

ـ «وين رايح!؟ دا......غـــر...»

ولكنه لم يتوقف.

* * * * *

تقلبت على فراشها طوال الليل، بدون أن يستطيع النوم سحبها لعالمه البرزخي، حتى سطعت شمس الصباح في غرفتها؛ فكان من الاستحالة أي محاولة جديدة للنوم. فاجأتها طرقات خافتة على الباب. انتظرت لتتأكد، ولكنها لم تتكرر. سمعت خطوات تبتعد عن غرفتها. لم تعرف ما الذي

دهاها لتقفز للباب وتفتحه لتضبط الطارق المنسحب. ولم يخب رجاؤها؛ كان هو شاغل أفكارها سارق النوم من أجفانها. نادته محاوِلة السيطرة على لهاثها كي لا يلاحظ لهفتها وهي تناديه، قبل ان يختفي في نهاية الردهة: «انت اللي طرقت الباب؟؟»

أدار رأسه بنظرات نادمة، ربما على لحظات ضعف، وتمنى لو لم تمسك به. أخذ نفسًا عميقًا واستدار نحوها ليعود إليها: «أيوة.. آسف.. يظهر إني صحيتك من النوم»

ـ «لا.. حصل خير.. أنا كنت صاحية.. بقصد صحيت.. وكنت نايمة.. انت شو بدك؟؟»

نظر حوله بإحراج: «هنتكلم على الباب؟؟»

رفعت رأسها، وهمت بإطلاق كل ما تعرفه من لغات للاعتراض على طلبه، ولكنها في النهاية وجدت نفسها تزفر بقوة، وهي تفتح الباب لتسمح له بالدخول، قائلة بتهكم: «ليش لأ!؟ انت في مقام جوزي»

أغلقت الباب ووقفت خلفه، وكأنها تستمد من الباب الشجاعة التي تفتقدها في وجوده. التفت لها بظلال ابتسامة: «خايفة؟؟»

هزت كتفيها وهي تتحرك نحوه، ثم تذكرت فجأة ملابسها الخفيفة، والتي ساعدت أشعة الشمس القوية لتظهرها وكأنها لا ترتدي شيئًا. تراجعت باحمرار شديد بوجنتيها.. نظرت حولها وأمسكت أول ما وقع تحت يدها،

قميصها الذي كانت ترتديه في وقت سابق من الليلة الماضية، ووضعته أمام صدرها في محاولة أخرى لتبدد ضعفها ووهنها أمام نظراته المدمرة. قابل تصرفها بنظرة تقييمية: «ودا أكتر حاجة جذبتني ليكي»

أحكمت القميص مرة أخرى على صدرها، متسائلة بنبرة مرتبكة: «وشو هاد؟؟»

ـ «دايمًا بتحاولي تكوني قوية، وإنتي ضعيفة وهشة.. زي التين الشوكي؛ من برة أشواكه بتحارب كل اللي بيحاول يقرب منه، واللي بينجح ويوصل لقلبه يلاقيه طعمه حلو زي الشهد»

ـ «أنا... أنا...»

رفع يده ليمنعها من الكلام، وأردف: «أنا جيت عشان أعتذر لك على تصرفي في الجنينة.. كنت بايخ أوي، ومافيش أي مبرر. أنا... آسف. بس كدة. جيت عشان أعتذر وهمشي»

ابتعدت عن طريقه بحركة آلية حتى وصل للباب. لم تصدق أنه جاء فقط لهذا السبب. صرخت الأنثى التي تعشعش في أركان كبريائها لتناديه في آخر لحظة قبل أن يفتح الباب: «انت كذاب يا (داغر) يا أسيوطي»

تجمدت أصابعه على مقبض الباب، وبدا وكأنه سيحيله رماداً بين أنامله القوية، ثم عفا عنه، وهو يلتفت إليها بملامح مهتزة: «الحاجة الوحيدة اللي

كانت بتخوفني لما كنت في (لندن) إنك تقري أفكاري.. كان عندي إحساس دايم إنك أول ما هتبصي في عيوني هتعرفي كل حاجة»

كانت تتحكم بعضلات وجهها بكل ما أوتيت من قوة، وهي ترد: «ما كنت بكل هاي الفراسة وإلا كنت كشفت كذبك من أول يوم»

بابتسامة باهتة ونظرات مكسورة: «بس إنتي صدقتيني»

ـ «المفروض تفرح كتير بنجاح كذبك وخطتك.. بس مش مبين عليك. ضميرك وجعك شي؟ هاد لو بتملك ضمير متل البشر»

ـ «كنت في مهمة، وكان لازم أنهيها. بس إنتي...»

هزت رأسها بإيماءة خفيفة: «شو!؟ لتفكر حالك حبيتني عن جد!! ما بظن.. انت كنت في مهمة متل ما بتحكي وهيك، طلعت معاك قصة حب، كرما لتضبط معك!»

ـ «مكانش لازم أحبك. إنتي... إنتي و(مراد)...»

شهقت متراجعة خطوات للخلف: «شو قلت!؟؟»

صرخ بصوت عذبته أفكاره: « (مراد) كان بيعشقك. مكانش ينفع أتجوزك، ومكانش ينفع يحصل اللي حصل بينا. ومينفعش إني أحبك.. مينفعش»

ظل يردد الكلمة حتى تحقق لها انطباع أنه يحاول إقناع نفسه بفكرة مستحيلة.

هذه المرة خرج مسرعًا قبل أن توقفه من جديد، ولو أوقفته لن يغادر أبدًا. راقبته يغادر مهزومًا، تهدلت ذراعاها ليسقط القميص الذي كانت تحتمي به، وأدركت الآن فقط أنه لم يحمها من مشاعرها.

*****

مر أسبوع لم تشعر بمروره. رغم الفكرة التي لا تكاد ترتاح من السيطرة على عقلها بطريقة لتعود بـ (أماليا) برضاه أو رغمًا عنه، ولكنها في غالبية الأوقات الأخرى كانت تقضي وقتًا ممتعًا، خاصةً عندما تجلس مع فريق (بخيتة) العجوز (سوار) و(مصلية)، التي اكتشفت سر عدائها في البداية؛ فقد ظنتها جاءت لتأخذ ابنتها وتحرمهم منها، بعد أن تعودوا على ضحكاتها، التي بدلت الأحزان الراكدة في زوايا القصر لسعادة.

راقبت ضحكاتهم التي تملأ وجوههم السمراء الطيبة. أسنان (مصلية) اللؤلؤية تضيء فمها المظلم، بينما فم (بخيتة) معتم لا تضيؤه إلا سنة واحدة في منتصف فمها. سألتهما وهي تحتضن (أماليا): «والحين لساتكم خايفين مني؟؟»

هتفت (مصلية): «أنا مبخافش إلا من اللي خلجني.. ومن خالتي (بخيتة). نحمد ربنا إنك طلعت زينة مش عفشة زي التانية»

سألتها (ديالا) باستغراب: «تقصدي مين بالتانية؟؟»

زغرت لها (بخيتة)، بينما وضعت (أماليا) يديها على فمها بتحذير. راقبت ثلاثتهم وانتظرت إجابة (مصلية)، فنهضت الأخيرة واقفة: «والله معرفش.. إيه الغلب اللي أنا فيه دا!؟ وأنا إش عرفني إنكم عاوزين تخبوا عليها!!؟»

أمسكت (بخيتة) بعصاها، وألقتها باتجاه الفتاة، التي عرفت نيتها مبكرا فهرولت هاربة وهي تسمعها تصيح خلفها: «الله يخيِّبك بت. انت خاشمك دا ايه، خط سكة حديد!؟ طوالي مافيهوش فرامل!؟ البت نزغر لها ونشاور لها، والبعيدة مخها تخين. والله ما أنا مجوازكي الواد. كنت عملت إيه عشان ابتلي بيكي يا بت المركوب أنت!؟»

أطلت (مصلية) برأسها من خلف الجدار الذي تختبئ خلفه: «والله لأتجوزه برضاكي ولا من غيره. هو كان بكيفك ولا يعني بكيفك!؟»

همت (بخيتة) بالنهوض لملاحقتها، فأمسكتها (ديالا) وهي لا تستطيع كتم ضحكها من الموقف: «اتهادي بالله يا خالة.. والله البنت ما بتقصد هي بس بتتمازح وياكي»

هتفت (بخيتة) بحدة: «هي كانت من سني ولا من دوري عشان تتمازح وياي بت (ستيتة) دي!!؟ والله لأجصف رجبتها الضايعة بت الضايعة»

ولم تستطع (ديالا) منعها في المرة الثانية، وهي تركن متعكزة على عكازها الخشبي المحني كظهرها.

تبادلت الأم وابنتها الضحك، وهما تتابعاها حتى اختفت، ثم سمعا صوت (مصلية) تصرخ. همت (ديالا) باللحاق بهما، فمنعتها (أماليا): «مافيش داعي يا ماما.. هم دلوقت هيروقوا وهيبقوا سمنة وعسل»

* * * * *

لم يحاول (داغر) أن يفرض نفسه مرة أخرى؛ لذلك اتخذت قرارها بهدوء. لم تكن مقتنعة به مائة بالمائة، ولكنها لم تكن متعجلة للوصول لهدفها. طرقت على الباب ليسمح لها بالدخول. دخلت وأغلقته خلفها: «إذا سمحت بدي أحكي معك كلمتين»

ـ «اتفضلي»

جلست لا تدري من أين تبدأ، حتى سهل عليها الحديث: «عاوزاني أحجز لك على أول طيارة مسافرة لندن؟»

ـ «لا.. في الواقع.. قررت أضل هون.. مع بنتي»

رفع أحد حاجبيه: «قرار عاقل.. بس في الحالة دي طلاقنا هيكون مستحيل»

زفرت ساخرة: «شو.. بتخاف عحالك من غوايتي، وبتفضل تضل مثالي برباط الزواج!؟»

ـ «إنتي عارفة كويس أن آخر حاجة ممكن أفكر فيها أي رباط ممكن يجمعني بيكي.. وبقدر المشاعر اللي بكنها لك في قلبي وإحساسي إني ماستحقش أي حاجة منها»

أومأت برأسها ساخرة: «إيه إيه.. بتذكر.. لأني مرت المرحوم أخوك اللي كان بيعشقـا»

زفر وتململ بعدم ارتياح: «سخريتك معناها إنك مش مصدقاني. مش مهم. اللي يهمني في الوقت الحالي إننا في مجتمع صعيدي متشدد في الحاجات اللي حضرتك شايفاها تافهة، ومسألة الشرف والعرض موضوعات تطير فيها رقاب، وفوق كل دا أنا مش ممكن أسمح لأي مخلوق يجيب في سيرتك أو يسيء لسمعتك»

أطرقت تفكر لحظات، وبحسبة بسيطة ظلت تديرها في رأسها حتى توصلت لحل مرضي. رفعت رأسها: «أوك يا (داغر).. ليش لأ.. موافقة»

حك لحيته الخشنة بتساؤل حائر: «موافقة على إيه بالضبط؟؟»

ـ «على كل شي.. وجودي هون (مع بنتي)، وإننا ما نتطلق»

ردد جملتها بنبرة ساخرة: «ولما نلغي فكرة الطلاق دا معناه...»

احتدت: «ما تتفائل كتير.. الخطأ اللي وقعنا فيه سوا في (ويلز) ما راح يتكرر. مش وفي جسمي روح وفي راسي عقل على الأقل»

أطرق رأسه بهالة من الظلام التفت حوله: «أعتقد إني استحقيت إنك تفكري فيا بالشكل دا»

أومأت برأسها موافقة، متمنية ألا يظهر عليها التأثر من حالته: «بس فيه سؤال محيرني. ليش كل اعتمادك على (أماليا) لتورث قصرك؟؟ ليش ما تتزوج وتجيب ولد من صلبك!؟ قصدي زواج حقيقي»

لم يتطلع لعينيها، وهو يرد بحدة مبالغ فيها: «دي حاجة تخصني لوحدي، وأرفض مناقشتها حتى مع زوجة تعتبر نفسها زوجة مؤقتة»

أجفلت عندما سبرت نظرته أغوار نفسها، وشعرت لوهلة وكأنه كشف خداعها. ثم هدَّأت من نفسها "هدي حالك يا (دي).. مستحيل يكون بيقرا أفكارك ولا يعرف خطتك"

همهمت بارتباك: «شو قصدك بزوجة مؤقتة؟»

ـ «دا إحساسك إنتي.. ولا أنا غلطان؟؟»

هُيئ إليها أن عيناه وصلتا لأعماقها. هبت واقفة: «إيه انت غلطان.. أنا عمري ما اهتميت فيك، وما خدعتك وأوهمتك بمشاعر مو موجودة في الأصل. ولو خيرتني لأخدت بنتي وطرت من هون لإنجلترا؛ مشان هيك من فضلك ما تسخر مني في وضع انت أجبرتني عليه»

أعلن ببرود: «جهزي نفسك.. هنتجوز أول ما أخلص ترتيباتي»

ضاقت عيناها: «شو!؟ بس إحنا متجوزين و...

ـ «هنتجوز بشكل رسمي قدام مأذون وشهود»

هزت كتفيها بلا مبالاة: «متل ما بدك.. ما بتفرق معي»

همت بمغادرة المكتب، عندما أوقفها سؤاله: «إنتي عرفتي إزاي؟؟»

تسارعت دقات قلبها؛ كانت تعلم جيدًا عما يسأل، ولكنها ادعت عدم الفهم: «عفواً.. ما فهمت!»

رغم علمه أنها تفهمه بشكل جيد تمامًا، وتدرك مقصده، رسم ابتسامة جافة: «مش مشكلة.. هأجّل سماعي للإجابة لما تكوني مستعدة»

فتحت الباب لتخرج، عندما وقفت مذهولة أمام تلك السمراء الباهرة الجمال، بثوبها المتلصق بجسدها ليظهر تفاصيله الأنثوية الناعمة، وقد وقفت تعترض طريقها وهي تمسحها بنظراتها الفاحصة من قمة شعرها الأشقر لباطن قدميها. بادلتها (ديالا) التحديق ثم التفتت كلتاهما لـ (داغر) بنظرات تساؤل.

نهض من خلف مكتبه حتى اقترب منهما. خص كل منهما بنظرة فاحصة، قبل أن يقدمهما لبعضهما البعض:

«عزيزتي.. دي (سولاف).. بنت عمي. (سولاف).. دي (ديالا).. والدة (أماليا) »

ثم أشار لـ (سولاف) مجددًا: «أه عفواً.. وخطيبتي»

*****

جحظت عينا (ديالا) للخارج، بينما اتسعت ابتسامة (سولاف) الشامتة، فأكمل مشيراَ لـ (ديالا): «و(ديالا) تبقى... مراتي»

تكسّر وجه (سولاف)، وهي تصرخ بهستيرية بطريقة شوهت جمالها: «إيه!؟ انت بتخرف بتقول إيه!؟ انت واعي للي بتقوله؟؟»

تراجع مسندًا ظهره للمكتب، عاقدًا ذراعيه على صدره، بينما هتفت (ديالا): «هلأ بس اتأكدت إنك إنسان مريض، وبدك علاج نفسي، وما راح أضل هون لارتبط فيك ولو كنت آخر رجل في الكون»

ـ «حبيبتي.. إنتي دايمًا تنسي؟ إحنا مرتبطين فعلًا. وعشان أنشط ذاكرتك كمان جوازنا مكانش على الورق بس. وإنتي يا (سولاف)..عندك إضافة؟»

عادت تمضغ شفتها السفلى كعادتها عندما تتوتر: «انت بتغير قواعد اللعبة تاني يا (داغر)!!»

سألها بتحدي: «مش أد اللعبة ممكن تنسحبي بدون أي غرامات»

ـ «دا اللي انت بتتمناه.. بس عمرك ما هتنوله أبدًا»

ثم جالت بنظراتها المحتقرة على جسد (ديالا): «معنديش مانع يكون ليا ضُرّة.. بس من الواضح إن المانع عندها هي!!»

سحقت (ديالا) أسنانها وهي تكز عليها: «إيه يا عيوني طبعًا عندي ألف مانع.. أنا ما بحب المشاركة.. أنا (يونيك).. واللي بدو اياني يكون خالص مخلص لإلي»

قهقه ضاحكًا: « (ديالا).. (سولاف).. أنا مش هغصب أي واحدة منكم على الوضع دا. أي واحدة ليها مطلق الحرية إنها تنسحب في أي وقت. ولكن خليكوا فاكرين.. أي انسحاب يتبعه تضحيات»

قال جملته الأخيرة يخص بها (ديالا)، التي ضربت في الأرض بقدميها باعتراض. ثم تابع محولًا نظراته لسولاف: «والاستمرار كمان عاوز تضحيات. فكروا كويس وأنا مستعد لأي وضع يرضيكم»

*****

(١١)

ذرعت غرفتها جيئةً وذهابًا، يكاد عقلها يحترق من كثرة التفكير.

"شو مفكر حاله.. (هارون الرشيد)!؟ إنتي جبتي لحالك ها المصيبة يا (ديالا).. بس مش راح أسكت على هادا الوضع، مشان لاقي حالي بيوم وليلة صرت رقم في قائمة زوجات حضرة (هارون الرشيد). دخيلك يا الله شو أعمل في المصيبة هاي؟؟"

وفي غرفة أخرى من القصر، كانت (سولاف) بدورها ترغي وتزبد وتدور حول نفسها كالأسد الحبيس.

"للدرجة دي يا (داغر)!!؟ للدرجة دي وصل استهتارك بمشاعري!!؟ للدرجة دي تفتكر إنك هتخليني أنسحب!!؟ بعد صبري عليك السنين دي كلها!!؟ هنشوف يا ابن عمي مين هيضحك في الآخر!"

أمسكت تليفونها المحمول، وضغطت على زر الاتصال، ثم هتفت بعد ثوان:

«ألو.. (فؤاد).. الوضع مش مبشر بأي خير. لازم تيجي فورًا! .... أكيد طبعًا في قصر (ألكسان) هيكون فين يعني!؟ هستناك مش هتحرك من هنا. وأنا هبلة عشان أقدمه لها بيضة مقشرة وأنا مستنية اليوم اللي يقع فيه ويتجوزني!؟ .... تعالى يا (فؤاد) وانت هتعرف كل حاجة»

ألقت بالهاتف على أحد الأرائك، وعادت لتدور حول نفسها تكاد تقضم شفتيها من التوتر، ثم صرخت تنادي: «(مصليـــــة)! يا (سواااار)! انتم فين يا بلاوي ماشية على الأرض؟؟»

أعادت النداء عدة مرات، قبل أن يدخل الاثنان على عجل لاهثين: «إنتي بتنادي علينا يا...

قاطعته بصراخ غاضب: «انت اطرشيت منك ليها!؟ صوتي راح وأنا بنادي عليكم، ومفيش أي غبي فيكم عبرني!! إيه عايشين في قارة تانية!؟»

هتفت مصلية: «والله ما سمعناكي.. الحيطات تخينة ما بتطلّع الصوت، وإنتي صوتك صغنون ورقيق كيف الرقاق تمام.. أه والله"

اقتربت منها تحدجها بنظراتها النارية، ملوحة بإصبعها في وجهها: «إنتي بتخرفي بتقولي إيه يا أم لسان طويل إنتي؟؟»

شهقت (مصلية)، وهي تتلفت حولها وتتبادل النظرات مع سوار: «أنا جلت حاجة يا سوار!؟»

رد عليها بشفاه ممطوطة: «أنا ما سمعتك.. يمكن جولتي»

ـ «وأنا كمان ما سمعت نفسي.. إنتي سمعتيني يا ست (سولاف)!؟»

ـ «أوووف منك! قلت اخرسي شوية خليني أعرف أتكلم. فين أوضة الملعونة المسهوكة؟؟ ولا تكون بتنام معاه في جناحه؟؟»

قلبت (مصلية) شفتيها، وتبادلت النظرات مع (سوار)، ثم عادت تجيبها: «ملعونة!! مين الملعونة دي!؟ قصدك خالتي (بخيتة)؟؟»

صرخت (سولاف) بغيظ: «(بخيتة) إيه يا خايبة الرجا!؟ يا معدومة العقل! الملعونة الزفتة التانية أم القردة الصغيرة»

هتفت (مصلية) بفهم: «أيوة.. عرفت تجصدي إيه. بس جردة إيه!؟ إحنا معندناش جرود. إحنا عندنا جرود يا (سوار)؟؟ اتكلم يا راجل!»

استدعت (سولاف) كل سمات الصبر التي لا تملكها، ودمدمت بصوت متقطع: «أم المفعوصة الصغيرة.. (أماليا) يا بلوة من بلاوي الزمن»

ـ «آااه.. جصدك ستي (ديالة)»

ثم تبادلت النظرات مع (سوار) بتفهّم، فهتف (سوار): «والله إن ستي (ديالة) دي نسمة.. والله ما في منها.. تصدقي يا (مصلية) إنها كانت هاديك اليوم...

صرخت (سولاف): «بس انت التاني! انتم إيه جوز بهايم!؟ اخرسوا واسمعوني!»

وصمت الاثنان، وهما يرمقانها بحذر، وكأنهما يفكران إن كانت مجنونة بالفعل أم أنها بدأت علامات الجنون. أخرجت زفرة كبيرة من صدرها لتهدأ، وأعادت السؤال: «بدون أي رد غبي.. الملعـــ... (ديالا).. بتنام فين؟؟»

وانتظرت ليجيبها أحدهما، ثم أومأت لـ (مصلية) بنفاذ صبر: «اتفضلي ردي»

ـ «في الأوضة الشَرِجية»

حدجها (سوار) وهتف باعتراض: «إنتي غلطانة يا (مصلية) هي مش في الأوضة الشرجية»

لوحت (مصلية) بيديها: «جسماً بالله في الأوضة الشرجية.. انت هتعرف أكتر مني!؟»

ـ «إيوة طبعًا بعرف أكتر منك.. إنتي حرمة وأنا راجل ملو هدومي»

ـ «وأنا ست البنات، ولا مش واخد بالك!؟»

أمال عمته البيضاء للأمام وحاجبيه يتراقصان: «ما آخدش بالي كيف!؟ دا إنتي ست البنات جسمًا بالله»

انتفض كلاهما عندما جاء صوت (سولاف) كزئير أسد غاضب: «خلصتم خلاص؟ ولا لسة هنكمل وصلة الردح وبعدها وصلة الغزل وكأني مش مالية عينيكم!؟ والله العظيم أول حاجة أعملها أول ما أتجوز (داغر) إني أتخلص منكم وهرميكم رمية الكلاب في الشارع!»

وضعت (مصلية) يدها على صدرها، وسألتها بصوت متأثر: «وهنهون عليكي يا ستي!؟»

ـ «اخرسي قلت! دلوقت هتروح انت وهي وهتجهزولي الأوضة اللي جنبها، بدون ما أي حد يحس بيكوا. فهمت؟ وإنتي فهمتي؟ يا رب تكونوا فهمتوا حاجة»

أومأ الاثنان بصمت، فأشارت لهما بالانصراف. تماسكا حتى أغلقا الباب خلفهما، ثم نظرا لبعضيهما وضجا بالضحك حتى دمعت عيونهما.

* * * * *

وقفت في النافذة المقابلة لبوابة القصر تعيد حساباتها، حتى رأت أخوها يدخل من البوابة الحديدية بسيارته، أسرعت بالنزول لتقابله في الحديقة.

ترجل من سيارته يساوره قلق شديد؛ فهو لم ير أخته الجبارة بهذه العصبية من قبل؛ فطالما كان يحسدها على برودة أعصابها وقدرتها على إدارة عالمها بطرف إصبعها. والآن بدأ يشعر بالخوف فعلًا، وهي تصطحبه ليتوغلا أسفل أشجار المانجو.

أغلق (داغر) النافذة بتنهيدة مسموعة، بعد أن رأى (سولاف) وأخاها يتسللان أسفل أشجار المانجو. كان يعلم أنها لن تستسلم بسهولة. ضرب بقبضته على المكتب. كما يعلم أنه جرح (ديالا) مرة أخرى، ولكن الواقع المفروض عليه أكثر صعوبة من أن يتخيله أو يتحمله إنسان.

(١٢)

طرقات على الباب أوقفتها عن ذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وبتوتر سمحت للطارق بالدخول. تنفست بعمق عندما وجدت (مصلية) تقف بالباب.

ـ «يسعد مساكي يا ستي»

ـ «أهلًا يا (مصلية).. ادخلي»

ـ «سيدي (داغر) بيه عاوزك»

أسقطت ذراعيها متهدلان، ووقفت حائرة لا تعرف بما ترد. أومأت لـ (مصلية):ـ

«فين؟؟ في المكتب؟؟»

ـ «لا يا ستي.. في الجناح المسحور»

رددت (ديالا) باستغراب: «جناح مسحور!!»

ـ «إيوة يا ستي أمال إيه! عشان محدش بيدخل هناك إلا سيدي (داغر) بيه. بيجولوا اللي يدخل فيه بدون ما يكون الأسياد راضيين عنيه، بيتوه جواه ومبيطلعش منه واصل»

ـ «بالله جد!؟»

هزت الفتاة رأسها بتأكيد: «جسمًا بالله.. اجعدي مع خالتي (بخيتة) هتكحي لك حداويت عن الجناح المسحور ده. بس يظهر أن الأسياد راضية عنيكي زي ماهي راضية عن سيدي (داغر) بيه»

ثم مدت يديها تتمسح بملابس (ديالا)، فسألتها بدهشة: «إنتي شو بتعملي!؟؟»

مسحت (مصلية) بيديها على رأسها وجسدها قائلة: «بتبارك بيكي يا ستي يمكن يرضوا عني أنا كمان»

هزت رأسها ضاحكة وهي تشير لها: «قدامي فرجيني الطريق للجناح المسحور واللي يرحم والديكِ»

وطوال الطريق، لم تكف مصلية على التمسح بملابس (ديالا)، حتى أوصلتها لباب الجناح. ثم وقفت مسمرة الخوف يتلاعب بعينيها، تقف بعيدة بخطوات عن الجناح. تراجعت وهي تشير لها: «ادخلي يا ستي هتلاقي سيدي (داغر) جوة. أنا هستناكي هناك في الجاعة.. بس أمانة تحكي لي عن كل حاجة شوفتيها جوة»

هزت رأسها لا تصدق ما تسمعه وتراه من تلك الفتاة الساذجة، ولكنها عندما فتحت الباب لفحتها نسمة هواء باردة غريبة على الحر القائظ الذي يحيط بها. رغمًا عنها سرت قشعريرة في جسدها، ولكنها هزأت من إحساسها، وتقدمت تدفع بشجاعتها تخاريف (مصلية) و(بخيتة). التفتت

صارخة حين ارتج الباب مغلقًا بدون أن تلمسه، ثم تلفتت حولها. كانت الإضاءة خافتة والرؤية شحيحة، وشيئًا فشيئًا بدأت تتضح لترى المكان يعج بالأثاث وبالتحف الأثرية في كل مكان. بعضها مغطى بملاءات بيضاء، وبعضها مكشوف. تمشت مستمتعة بمشاهدة كل هذه الآثار التي يرجع تاريخها لمئات الاعوام، وقد تم الحفاظ عليها إلى حد ما تبدو بحالة جيدة. كانت تدقق النظر في ساعة كبيرة أكبر من حجم إنسان بالغ من الذهب الخالص، ومزخرفة من قمتها الدائرية وحتى قاعدتها العريضة.

ـ «يظهر إننا بنشبه بعض في حب الحاجات القديمة»

تجاوزت لحظات المتعة التي نسيت فيها كل شيء، وبصعوبة أخذت تحاول استعادة شعورها بالغضب والكره، والتفتت له لتواجهه بحدة، ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل؛ وجدت نفسها تضيع في نظراته، وتكاد تذوب في لمساته التي يراودها بها دون حتى أن يقترب منها. طال الصمت، وكان لابد أن تكسر هذا الحاجز غير المرئي، فنطقت بأول ما خطر ببالها: «ليش بيسموا هَيّدا المكان بالجناح المسحور؟؟»

قهقه ضاحكًا: «دي من أفكار (بخيتة). لما أنا جمعت كل الآثار اللي في القصر في الجناح دا، وعملت له تكييف مركزي عشان يحافظ عليها، ومنعت الدخول ليه تمامًا.. وهي عشان محدش حتى يفكر يدخل طلعت عليه الإشاعات دي. وإنتي عارفة هي أد إيه شاطرة في الحكايات»

ـ «العمى! (مصلية) مصدقتها لدرجة إنها كانت بتتبارك فيني على أساس إن الأسياد راضيين عني. ومين هادولا الأسياد؟؟»

ـ «لأ دي حكاية طويلة، هحكي لك عنها بعدين. أنا جبتك هنا عشان...

قاطعته مكتفة ذراعيها على صدرها: «إيه.. ليش جبتني لهون؟؟ باسمعك»

تنهد ثم هز راسه قائلًا: «أنا عارف إنتي بتقولي عني إيه دلوقت»

ـ «إيه.. إيه أكيد بتعرف.. بس ولا هامك. كل اللي بدك إياه راح يصير، بغض النظر مين راضي ومين مو راضي.. مين بده يقعد هون ولو شوما صار، ومين بده ينقلع عـ أول طيارة وما بده حتى يتطلع بوشك»

ـ «مسألتيش نفسك سؤال.. ليه (سولاف) راضية عن وضع زي دا؟؟ ومستعدة تستمر فيه حتى لو كنت متجوز تلاتة مش واحدة»

ـ «لا.. ما سألت نفسي.. ولا راح أسألـا. بتعرف ليش؟ لأنك سقطت من نظري كرِجّال. كان ممكن أفكر أو أسأل حالي لو كنت واقعة بغرام حضرتك وبسهر الليل أعد النجوم. بس انت عارف شو عملت لحتى أوصل لهون، وعلى قولتك الكرة صارت بملعبك. انت لو بترضى تعيش مع مرا ما بتطيق حتى تسمع صوتك، على هيك أهلا وسهلًا. لو لساتك تملك -ولو شوي- كرامة، ممكن تقطع لي تذكرة مع بنتي لنرجع لإنجلترا ويا دار ما دخلك شر»

لحظة فوران الغضب في عروقه التي انتفضت ثأرًا لكرامته، دفعته ليمسك بكتفيها ويهزها بقوة. استمر بهزها حتى جرحته دموعها الخرساء، فتوقف

فورًا وفتح قبضات أصابعه عن كتفيها، لتبتعد من فورها وتدلكهما بقوة، وهي ترمقه بنظرات عاتبة.

زفر بدون اعتذار: «يا ريت الأمور بالبساطة دي!»

ـ «وشو اللي هيعقدا!؟ من الواضح إنك ما بتقدر تتحكم في انفعالاتك ولا في رغباتك»

ـ «لأ.. إنتي مش فاهماني. فيه حاجات كتيرة قوي متعرفيهاش عني يا...»

ارتفعت بعينيها لتلتقي بعينيه مرة أخرى، وندمت على فعلتها الحمقاء. أمسك يديها وجذبها ناحيته، وأخذ يتشمم رائحة شعرها زافرًا بقوة: «اشتقت لريحة شعرك، ولنظرة عينيكي ليا، وحتى لزعلك مني، ولكل حاجة فيكِ. آه لو تبطلي عناد شوية!»

بنبرة مهتزة، وهي تحاول الفكاك منه بمقاومة ضعيفة: «شو شايفتك قدرت تتغلب على عقدك، ونسيت أني بكون مر...

وضع إصبعيه على شفتيها ليسكتها، هامسًا بأنفاس متلاحقة: «أنا كان لازم أفكَّر نفسي في كل لحظة إنك مرات أخويا؛ لأني لو طاوعت نفسي للحظة، ونسيت الحكاية دي وخضعت لتأثيرك عليا، كنت هافشل في تنفيذ وصيته.. ووقتها كان تنفيذ وصية أخويا الميت أهم من تحقيق رغباتي أنا، حتى لو كانت حية.. حية أكتر من اللازم. ورغم كل ده... إنتي دلوقت مراتي أنا.. أنا وبس!»

نزعت يده عن فمها، قائلة بدموع حاولت كثيراَ منعها: «للأسف ما بقدر أقول متلك.. إنك جوزي أنا وبس. لأنك راح تكون جوز مرا تانية غيري، ويمكن تالتة ورابعة»

صمت كلاهما، يحدقان ببعضيهما بنظرات انفعال لاهثة. هزت رأسها بعدم فهم: «أنا ما بعرف انت مين بتكون.. الزوج الندمان على زواجه لأنه ما بيستحق؟ ولّا الأخ اللي بيعذبه ضميره لأنه اتجوز مرت أخوه؟ انت مين فيهم يا (داغر)؟؟»

ـ «أنا الراجل اللي قرر في يوم إنه يتنازل عن كل شيء عشان ينفذ وصية»

استمر هجومها: «ووصية (مراد) كانت بتنص على إنك تتجوز مرته وبنت عمك سوا!!؟ شو ها الوصية هاي!؟؟»

ـ « (ديالا).. (سولاف) ليها ظروف خاصة. دا مش معناه إني...

قاطعته بانفعال: «إيه.. هي إلها ظروف، وأنا إلي ظروف، ويمكن تقابل واحدة تالتة إلا ظروف، وهلم جرة. كل رجال نسوانجي بيقول متلك»

ردد كلمتها بتهديد: «نسوانجي!!؟ دا أنا!؟»

ـ «إيه.. وشو بيسموا الرجال اللي بحالتك لو ما كان نسوانجي!؟»

لوح في وجهها بإصبعه وقد جانبه الهدوء: «(ديالا).. أنا جايبك هنا عشان أفهِّمك. لو كنت نسوانجي زي ما بتقولي مكانش همني رأيك.. كنت عملت في كل أوضة زوجة، وباقي القصر ما ملكت أيماني»

ـ «وعلى شو بتسألني لكان!؟ ولو قلت لك ماني موافقة على ها الجمعة الحلوة.. شو راح تعمل؟؟ راح تفسخ خطوبتك من السنيورة ست الحسن والجمال تبعتك!؟»

تنهد بضعف: «مش هقدر.. يا ريت كان بإيدي»

ـ «دخيل الله انت بإيدك وكيفك.. بس انت اللي عينك فارغة وعقليتك متخلفة متلك متل كل رجل شرقي. مشان هيك كنت رافضة إن بنتي تعيش بهيك مجتمع متخلف، المرا فيه ما إلها حقوق قدام سطوة الرجل وتعنته في استخدام حقوقه، أو اللي مفكرها حقوقه»

أخذت نفسًا عميقًا، واستطردت: «(داغر) انت شو بدك مني هلأ؟؟»

أطرق برأسه: «خلاص.. إنتي مصممة على رأيك ومش عاوزة تفهميني»

ـ «انت ما قلت شي ممكن أفهمه.. انت بس بدك إياني أرضى على وضع من الأصل رافضته. وهادا مش ممكن يحصل. انت ما راح تجمع بينا برضاي أبدًا. وخليك فاكر انت من البداية أجبرتني على وجودي هون. فما تلوم إلا حالك لأني ما بتفهّم وضعك اللي ما بعرف إيش هو»

راقبها حتى غادرت الجناح برأس مرفوع رغم إحساسها المرير بالهزيمة.

* * * * *

(١٣)

على العشاء كانت المائدة عامرة بضيوفها. أصرت (سولاف) على الجلوس على يسار مالك القصر عندما وجدت (ديالا) تتخذ مكانها على يمينه، بينما جلس (فؤاد) بجوار أخته، يرمق (ديالا) بنظرات إعجاب. منذ لحظات فقط قامت (سولاف) بالتعريف بينهما، ومن وقتها لم يرفع عينيه عنها. تجاهلت نظرات ذلك القريب الذي يظن نفسه (كلارك جيبل). وجه (داغر) سؤاله لـ (ديالا) ليستشعر مزاجها من نبرة صوتها:

«(أماليا) اتعشت؟؟»

ضغطت على نفسها لتجيبه بابتسامة، وهي تميل عليه دون أن تحيد بنظراتها عن (سولاف) التي تحترق غيظًا: «إيه نعم.. (بخيتة) ما تركتا إلا وأكلتا كل الكحروت اللي في التلاجة»

ثم أردفت بعد تذكرها لموقف (أماليا) من تسمية البيض: «وأنا كنت وياها لحد ما راحت بالنوم. خبرتْني إنا كانت بتتعشا وياك. كنت بتدللا كتير»

ـ «أعمل إيه!؟ كانت الوحيدة اللي بتسليني»

هتفت (سولاف) بحدة: «لو مكنتش أجلت جوازنا كل السنين دي كان زمان عندنا أولاد بعمر (أمال)!»

هتفت (ديالا): «اسم ابنتي (أماليا) مو (آمال)»

ردت (سولاف) ببرود: «والله!؟ بيتهيألي اسم (أمال) له معنى.. أما (أماليا) دا معناه إيه؟»

صاح (فؤاد) مقاطعًا حديثهما بابتسامته اللزجة: «إنتي غلطانة يا (سوسو).. اسم (أماليا) أحلى بكتير من (أمال). مش كده ولا إيه يا (داغر)؟ انت معانا؟»

غمغم (داغر) باقتضاب، وهو يختلس النظرات لـ (ديالا): «أيوة طبعًا.. (أماليا) أحلى بكتير؛ خاصة أن (ديالا) هي اللي اختارت الاسم، وهو يوناني ومعناه (اللطيفة المحبوبة)★»

أومأ (فؤاد) بنظرة انتصار، وهو يعيد مد حبل الحديث لـ (ديالا) غير آبه لتجاهلها حتى النظر تجاهه: «إيه رأيك في أسيوط؟؟ أخدتي جولة في آثارها ولا (داغر) قاعد مكرتن في البيت زي عوايده؟؟»

وعندما استمرت (ديالا) بالتجاهل أردف: «على فكرة أسيوط دي مليانة آثار جميلة جدًا.. أنا مستعد أفضِّي نفسي يوم وأخدك في جولة في المتاحف والآثارات المفتوحة. أنا متأكد إنك هتستمتعي بوقتك معايا.. قصدي بين الأثارات.. ولا إيه رأيك يا (ديالا)؟؟»

حدجه (داغر) بنظرة نارية، وهم بالاعتراض، عندما هتفت (ديالا) بابتسامة ناعمة فاجأت (داغر): «إيه طبعًا.. والله انت ابن حلال يا (فؤاد). من يوم

ما إجيت وأنا محبوسة هون بين أربع حيطان. (داغر) ما فكر يوم ياخدني يفرجيني الأثار»

هتف (فؤاد) بلهفة: «ولا يهمك.. أنا تحت أمرك. اختاري اليوم اللي يريحك وأنا تحت أمرك»

زمجر (داغر)، وهو يضرب يده على المائدة بغيرة واضحة: «كالعادة يا (فؤاد)، بتفرض نفسك على الناس بدون ما حد يطلب منك. زي ما فرضت نفسك علينا الليلة بدون دعوة، وكمان بتفرض نفسك على مراتي!» وضغط على حروف الكلمة بحدة: «وبتتفق معاها إنك تخرّجها! أنا مشفتش وقاحة أكتر من كدة!»

صاحت (سولاف): «أنا دعيت أخويا يا (داغر).. ودي فيها إيه يعني!؟ هو أنا ماليش حق هنا ولا إيه!؟»

- «لما حضرتك تبقي مراتي، مش قبلها يا (سولاف) هانم، هيكون ليكِ الحق تدعي وتطردي الناس من بيتي، وترميهم في الشارع زي الكلاب براحتك»

بهتت (سولاف)، وتمتمت متوعدة لزوج الخدم الأغبياء، ثم انتبهت لـ (داغر) الذي ما يزال يلقي محاضرته: «وعلى كل حال أنا مقدرش أطرد ابن عمي من على سفرتي.. لو كان كلب أجرب مكنتش هطرده»

ازدرد الإخوة لعابهما بصعوبة، وهما يتبادلان النظرات المختلسة. هتفت (سولاف) لتغيير الموضوع: «وإمتى هنتجوز؟؟»

حدجها (داغر) بنظرة مستغربة: «إنتي اللي بقالك سنين بتأجلي مش أنا.. كان عندك أمل أني أبيع القصر»

ـ «أيوة.. بس خلاص صبري فرغ، ومش شايفة أي داعي للتأجيل بعد كده؛ خاصة بعد التطورات الأخيرة»

وحدجت (ديالا) بنظرة نارية، ثم أعادت انتباهها لداغر يلقي بمفاجأته: «دا قراري أنا.. الأسبوع الجاي هنتجوز أنا و(ديالا)»

حدجتهما (سولاف) بنظرة قدرية، وهتفت: «بس انت قلت إنك انت وهي...»

ـ «أيوة.. اتجوزتها في إنجلترا بعقد مدني، وهنوثقه هنا في بلدنا. بعد ما نخلَّص كل الإجراءات، لو كان في العمر بقية، هنتمم جوازنا يا (سولاف).. بعدين»

بصوت غمرته النبرات الحاقدة والغل الأسود، تمتمت وهي تلتهم شفتيها حتى أدمتهما: «يا ترى إيه اللي حصل في (إنجلترا) عشان تتسربعوا وتتجوزوا عرفي هناك؟؟»

ضرب على السفرة بيده، لترتفع كل الأطباق وتنزل بضجيج، وهو يصرخ: «(سولاف)!! إنتي اتجاوزتي حدودك! كلمة واحدة زيادة وهرميكي برة إنتي فاهمة؟»

كان دور (ديالا) لتحدجه بنظرة نارية، أحرقت الأخضر واليابس في المسافة الصغيرة التي بينهما. كان يعلم مقدار ما تعانيه. تمنى لو تسأله ليجيبها، ولكن كبرياءها كان عائقًا دائمًا بينهما. في اللحظة التي استسلمت فيها بعدها، دخلت (سولاف) ليرتفع ذلك الحاجز بينهما، وفي كل لحظة يشعر بارتفاعه، رغم أنها ما تزال تدَّعي الاستسلام. ولكنه لا يرى بعينيها أي استسلام.

فكرت ودماؤها تفور من شدة ما تشعر من غليان.

"ذلك الشرقي المتبجح! كيف تسوِّل له نفسه!؟ كيف يخيِّل له عقله المريض أنني سأتنازل بهذه السهولة، وأسمح له أن يجمع بيني وبين زوجة أخرى!؟"

رسمت ابتسامة عريضة ردًا على نظرته المتسائلة، بعد أن لاحظ شرودها.

"إن كنت بهذا الغباء لتصدق، فأنت تستحق كل ما سيحدث، وعليك أن تكتفي بتلك الأفعى الرقطاء وأخوها اللزج"

وضع يده على يدها. كانت بحاجة لكل قوة إرادتها كي لا تجفل، وتبعد يدها بعيدًا عنه، وهو يسألها: «حبيبتي.. أنا أسف.. أوعدك إنها مش هتتجاوز في كلامها معاكي تاني أبدًا»

وضعت محرمة المائدة بعيدًا عنها، مقتربة منه لتهمس وعينيها مركزتان على (سولاف) تشتعل غيرة: «حبيبي بتعذرني.. عندي صداع رهيب. اعتذر لضيوفك بالنيابة عني.. قصدي خطيبتك وخيـا»

وكانت نهاية قدرتها على التمثيل، فدفعت مقعدها للخلف بصوت مزعج، وغادرت بسرعة، تكاد قدميها تلتفان حول بعضهما من توترها.

تبادل الأخوان نظرات المنتصر في المعركة، واستمرا في التهام طعامهما باستمتاع.

اطمأنت على (أماليا)، تنام بعمق واسترخاء، وعلى وجهها ترتسم ابتسامة هادئة وديعة. شعرت (ديالا) بغصة في قلبها وهي تعيد غلق الباب بهدوء شديد.

حاولت كثيرا أن تستدعي سلطان النوم لأجفانها الساهدة، ولكنه أبى أن يكون طوع أمرها. كان الفجر قد أوشك على الطلوع، عندما استسلمت أخيراَ. ارتدت مئزرها فوق منامتها الرقيقة، وخرجت متجهة للشرفة الكبيرة المطلة على النيل.

تقدمت تتنسم هواء النيل في هذا الوقت المبكر قبل خروج الشمس من كهفها، عندما توقفت فجأة تستمع لأصوات تتهامس. اقتربت بحذر لتفاجأ بـ (داغر) جالسًا على إحدى الكنبات الصعيدي المنتشرة في زوايا الشرفة، وقد تمدد فوقها آخذًا (أماليا) بين أحضانه، وقد التفا بغطاء خفيف.

كان يضع ذقنه على رأسها، وكلاهما يحدق في صفحة النيل الجميل على ضوء القمر الشاحب. مشهد يسرق الأنفاس، ولكن أنفاسها كانت قد سُرِقت بالفعل من الانسجام بين هذين الاثنين.

سألته الصغيرة فجأة:

«بابا.. انت قلت إن القصر دا كان ملك (ألكسان) باشا»

ـ «نعم..»

ـ «بس (ألكسان) مش اسم مصري»

ـ «في الوقت ده كان بيعيش في مصر جاليات كثيرة غير عربية، زي اليونانيين والفرنسيين والإنجليز.. (ألكسان) باشا كان محامي من أثرى أثرياء أسيوط.. بنى القصر سنة ١٩١٠م.. جاب المهندسين من إيطاليا، وشارك في البنا كمان فنانين من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا★»

ـ «والجنسيات دي كانت بتاخد لقب الباشا عادي كدة زي أهل البلد؟؟»

ـ «أحيانًا كان بيحصل.. بس (ألكسان) باشا قصته كانت مختلفة شوية. لقبه جاله لحد عنده بطريقة غريبة جدًا»

هتفت (أماليا) بفضول: «إزاي يا بابا؟؟»

تنهد تنهيدة طويلة: «إنتي شكلك مطولة في السهر يا بنت إنتي.. ماشي اسمعي.... كان الملك (فاروق) في رحلة نيلية على واحد من يخوته الفخمة، لما مر على قصر (ألكسان)، وعجبه بناؤه وزخرفته، وسأل حاشيته عنه، قالوا

له إنه قصر (ألكسان).. وهنا هز الملك (فاروق) راسه بعظمته المعهودة، وردد بإعجاب وهو يفتل شواربه: "عظيم.. عظيم.. قصر (ألكسان) باشا"★. ومن اللحظة دي أخذ (ألكسان) لقب الباشوية؛ لأن طلبات الملوك لا ترد. وتوتة توتة فرغت الحدوتة. عجبتك القصة؟؟ (أملي).. (أمــ...

ـ «راحت بسابع نومة»

رفع رأسه لينظر لـ (ديالا)، التي قررت أخيرًا الخروج من مخبئها: «شكلها كانت فاكرة إني بحكي لها حدوتة قبل النوم»

ـ «انتم على طول بتسهروا هيك سهرة؟؟ من شوي بس كانت بفرشتـا»

ـ «هي عارفة إني بكون هنا كل يوم لحد صلاة الفجر. لما بتحس بأرق بتيجي معايا نرغي شوية ونصلي الفجر جماعة ونروح ننام»

ـ «والحكاية اللي حكيتا تبعت (ألكسان) باشا.. حقيقية؟؟»

ـ «طبعًا.. كل اللي حكيته أحداث تاريخية حصلت فعلًا.. أنا مش بكدب»

تقدمت بالمزيد من الخطوات، ولكن لتقترب من حاجز الشرفة وتوليه ظهرها، قائلة: «إلا بس لما بتقرر تخدع وتزور وتسرق»

أخرج زفرة كبيرة. كان يحاول النهوض حاملًا (أماليا)، عندما سمعت (ديالا) آهة مكتومة، فالتفتت مذعورة لتجده راكعًا أرضًا و(أماليا) لا تزال بين ذراعيه، دافنًا رأسه في أحضانها الصغيرة. ركضت (ديالا) نحوه: «(داغر)! شو بك!؟»

أمسكته من كتفيه، لتلاحظ برعب انتفاضة جسده، والعرق الذي تفصد غزيراً من جبينه.

وازداد رعبها عندما وجدته يعض على الغطاء كي يكتم تأوهاته، فصرخت برعب تنادي على الخدم: «(مصليـــة)! (سواار)! الحقـ...

أمسك بيدها بقوة ليمنعها، يهتف لاهثًا بصوت متقطع: «متناديش حد»

ركعت جواره، أبعدت عنه (أماليا) وألحفتها بالغطاء، ثم التفتت نحوه، لتجده قد بدأ يعود للهدوء، وان كان لا يزال صدره يعلو ويهبط بلهاث.

ربت على يدها: «أنا كويس»

حاول النهوض، فمدت له يدها، والوساوس لا تزال تنخر أفكارها عن سبب ما يعانيه. وقف جوارها وهتف بصوت منهك: «تعالي نقعد هناك.. جنب حاجز البلكونة»

طاوعته. ساعدته ليجلس بزفرة طويلة متعبة، ثم جلست أمامه وعادت تسأل بقلق: «(داغر).. شو بك؟؟ احكي لي وقّعت قلبي يا زلمة!»

شبه ابتسامة تعلقت بزوايا شفتيه: «إنتي قلقانة عليا بجد!؟ أنا عارف إن دا مش صحيح.. إنتي ممثلة رائعة يا (ديالا)»

أجفلت متراجعة بظهرها للخلف، فأردف: «أنا معنديش مانع.. بس أتمنى إنك تكوني مش بتفكري تهربي مع (أماليا). يا ريتني ما كنت مضطر إني أعمل اللي عملته وكان السبب في وجود كل الحواجز اللي بينا، واللي مش

قادر أخطيها مهما حاولت. بس لو عاد بينا الزمان مكانتش حاجة اتغيرت؛ كنت عملت اللي عملته بدون حذف ولا مشهد واحد.. عارفة ليه؟؟»

* * * * *

(١٣)

كان ينظر للنيل، ثم حول عينيه إليها فلم تلحظ أي اختلاف. كان ينظر لها بذات نظرات العشق التي يتأمل بها نيله الحبيب.

ـ «(مراد) عمره ما جاب سيرتي وقالك إن له أخ توأم؟؟»

أومأت بالإيجاب، فأردف: «كان طول عمره بيحلم بالسفر حول العالم، ونفِّذ حلمه أول ما خلص الثانوية العامة. كان بيقول إنه عاوز يبحث عن كينونته، وهيعمل لنفسه عالم خاص بيه»

أومأت: «إيه.. هادا هو (مراد). دايما بيحلم بعالم مو موجود إلا بخياله»

اتسعت ابتسامته رغم الحزن الذي يتقطر من جوانبها: «على عكس كل التوائم المعروفة، كنا مختلفين في النقطة دي. أنا عمري ما فكرت أبعد عن بلدي ولو لحظة واحدة. عشقي لأرضي ونيلي وحياتي وقصري، مش مجرد كلمات عشق على ورق؛ روحي ممزوجة بكل حاجة حواليا.. جذوري ممدودة لأعماق الأرض دي لأبعد ما تتخيلي.. الشهور اللي غبتها في (إنجلترا) كنت زي السمكة برة المية، ولما رجعت سجدت في أرض المطار شكراً لله إني هموت على تراب بلدي»

حدجته بنظرة مرتابة متسائلة، تجاهل نظرتها وتابع: «ولما (مراد) رجع بعد كل السنين دي، اعترف لي إنه غلط لما بعد عن أرضه، وإنه خلاص ناوي

يرجع، وهيبعت لمراته وبنته عشان يعيشوا في (ألكسان). قال لي بالحرف "لازم (أماليا) تعيش طفولتها تحت سقف (ألكسان) زي أبوها وعمها"»

ـ «مشان هيك بتعرف عنا كل شي.. هو حكالك عنا؟؟»

ـ «أيوة.. كان بيحبك بجنون، واعترف لي إنه أذاكي كتير بدون ما يقصد. وكان عاوز يفتح صفحة جديدة معاكم، بس قدره سبقه، وحصل الحادث»

هتفت بفضول: «وكيف حصل الحادث؟؟»

أطرق لحظة، وهيئ إليها أنه تحت تأثير حزن أعمق بكثير مما يظهر، ثم رفع رأسه قائلًا: «أنا... أنا قتلته»

شهقت برعب: «شوووو؟؟»

ـ «مش بالمعنى الحرفي.. بس أنا السبب ؛ كنت بسوق العربية لما حصلت الحادثة. كنا على الطريق بنتكلم ونضحك، نسترجع ذكرياتنا. وفجأة مرت قطة على الطريق.. عشان أفاديها.. مات أخويا.. انقلبت بينا العربية ومات فورًا، وأنا نقلوني للمستشفى بين الحياة والموت»

شهقت (ديالا)، وذكريات الماضي تتدفق في عقلها، فتمتمت بذعر: «خبّرتني لما كنا بويلز إنك بتحتضر.. مشان شظية أبصر شو رشقت براسك من حادثة. كانت كذبة من ضمن الأكاذيب.. ما هيك؟؟»

ولأول مرة تتمنى لو كان يكذب فعلًا، ودعت الله بصمت، قبل أن يومئ برأسه قائلًا بصوت متحشرج: «مش بالضبط.. أنا مش بموت فعلًا.. بس يا

ريتني كنت. الشظية استقرت في العمود الفقري، الفقرات العنقية. يمكن أكون على وشك الإصابة بشلل دائم رباعي، وفي أحسن الأحوال شلل نصفي»

شهقت مرة أخرى قائلة بصوت باكٍ: «انت بتكذب متل عوايدك»

ـ «كان لازم أكفَّر عن ذنبي؛ عشان كدة نفذت وصية مراد، ولجأت للخداع والكذب لإنك مكنتيش هترضي إن (أماليا) تسافر معايا بلد أبوها لو كنت دخلت عليكي بالحقيقة، وكان لازم (أماليا) تعيش في (ألكسان)، أخر رغبة لـ (مراد).. كان صعب إني منفذهاش»

هتفت بدموع سخية: «وزواجك مني، واللي حصل بيناتنا، كان من ضمن وصايا (مراد) كمان؟؟»

أجاب بصوت مختنق: «لا.. دي كانت غلطتي. سامحيني كان لازم أحميكي إنتي و(أماليا) من (سولاف) و(فؤاد). وهاعمل اللي أقدر...

صرخت: «مشان تعمل شو!؟ انت رجل محكوم عليه بالحياة ميت. انت حكمت عحالك. ليش بتتعب نفسك وتفكر في حياتنا!؟ ليش ما دورت على علاج!؟ كنت بإنجلترا.. ليش ما سمعت مني وعرضت نفسك على الدكاترة هونيك!؟ ليش!؟؟ بدل ما تتحكم بحياة الناس على هواك كنت شوف حياتك بالأول»

صرخ بعذاب: «مش على هوايا»

ردت باتهام: «وفق هوى مين لكان!؟ (مراد)؟؟ رغبات رجل ميت بتحركنا متل الدمى كلنا وانت معنا»

ـ «اسمعيني يا (ديالا)..»

انتفضت واقفة: «ما راح اسمع منك شي! يمكن تكون لساتك بتحاول تكسب شفقتي لسامحك على جيزتك من (سولاف)، ويمكن لأستسلم لقدري اللي عملته انت بعقليتك المتخلفة. ما بعرف شو قصدك ها المرة.. بس أنا بالتأكيد ما راح أصدق رجل متلك، ينكر على نفسه حق الحياة ويدير حياة الآخرين وفق رغبات رجل ميت. وبأي عقل بتفكر تتجوز تنتين وانت مصيرك مشلول!؟»

تحركت بعصبية لتغادر الشرفة، ثم توقفت أمام ابنتها النائمة على الكنبة الصعيدي، والتفتت له نصف التفاتة: «ممكن بعد ما تمر حالة التمثيل اللي راكبة عراسك، ترجع (أماليا) لغرفتا؟»

وصلت لغرفتها، وهمت بفتح الباب، عندما فُتِح الباب بجوارها، وأطلت منه (سولاف) ترمقها بنظرات اتهام: «إنتي كنتي فين في الوقت المتأخر دا؟؟»

ـ «والله يا (سولاف) خانوم ما كنت بعرف إني لازم أقدم لحضرتك تقرير بتحركاتي. كنت جهزته وقدمته قبل ما أنام»

ـ «كنتي في جناحه.. مش كده؟؟»

تأففت (ديالا) حانقة: «شو مفكرتينا في قصر حريم السلطان هون!؟»

فتحت الباب وهمت بالدخول، عندما أوقفتها (سولاف) مرة أخرى: «يمكن يكون حل مشكلتك عندي»

توقفت (ديالا) عن الحركة، لتحدق بوجه (سولاف) بابتسامتها الواثقة وأحد حاجبيها المرفوع بتأكيد. ثم فكرت أنها لن تخسر شيئًا إن استمعت لتلك الحية؛ ربما يكون في سمها الدواء الناجع.

* * * * *

(١٤)

«وفي الآخر يا (داغر) يا أسيوطي خسرت كل حاجة.. حتى نفسك»

- «انت بتتحدت معايا يا سيدي؟»

- «لأ يا (بخيتة).. بكلم نفسي»

- «ألف سلامة عليك يا سيدي.. إن شاء الله عدوينك وكل مين يكرهك.. بس انت ناديتني ليه إن كت هتحدتت لحالك!؟»

ارتاحت أساريره العابسة بشبح ابتسامة:

«لأني برتاح في وجودك يا (بخيتة) يا عجوزة»

تجهم وجهها وهي تسأله بصوت متهدج: «سلامتك يا سيدي.. بتشكي من إيه وانت في عز شبابك!؟ صحتك وعافيتك ساترينك وساندينك، وما ينادم عجوز كركوبة زيي حالاتي. إلا إذا كان... أعوذ بالله من الشيطان الوسواس الخناس»

- «متخافيش يا (بخيتة).. عمر الشقي بقي. إوعي تكوني نسيتي تأكدي لـ (ديالا) على معاد المأذون»

- « (بخيتة) عجوز خرفانة.. بس في الحاجات المهمة دي عجلها يوزن بلد بزيها. بس هي كمان شكلها مش زي عروسة فرحانة بليلة دخلتها. ما تريّح جلبي وعجلي الخرفان يا ولدي، وتسلسل الشيطان الرجيم اللي واخدها سداح مداح بأفكاره الأسود من جرن الخروب.. أعوذ بالله منه الخناس»

ـ «هتعرفي يا خالة.. هتعرفي في الوقت المناسب»

رغم محاولته للضحك، ولكنها كانت تشعر بحاستها السادسة، التي لم تكذبها أبدًا، أن خلف تلك الشفاه المشقوقة بابتسامة عالم كامل من الأحزان التي تنوء بثقلها الجبال.

*****

دخلت (أماليا) على أمها، ترتدي ثوبًا أبيض من التول المنفوش، وقد زينت شعرها الأسود بتاج من الألماس المقلد. صفرّت (أماليا) عندما رأت أمها ترتدي ثوبها العاجي الأنيق، وقد حدد معالم جسدها الأنثوية بدقة ليزيد من جمالها. ولكن يدي (ديالا) ظلتا ترتعشان فلم تستطع إكمال زينتها.

ـ «مامي إنتي حلوة قوي.. واو بابا هيتجنن من كل الجمال دا!»

التفتت لها تسألها بلهجة جادة أخافت الفتاة: «(أماليا).. إنتي متأكدة إنك بدك تعيشي هون؟؟ في قصر (ألكسان)؟ وفي (أسيوط)؟»

ـ «أيوة يا ماما.. بالتأكيد.. ودا سؤال!؟»

أخرجت تنهيدة كبيرة، ثم التفتت لتنظر لنفسها في المرآة، تضرب بفرشاتها بشكل عشوائي على وجهها: «ولا شي حبيبتي.. كنت بتأكد بس مشان ما نندم بعدين»

ـ «ماما... أنا عارفة إن بابا... بابا هو...»

التفتت (ديالا) ببطئ نحو ابنتها، تستمع إليها باهتمام، وقلبها يكاد الجنون يصيب دقاته: «إيه.. كملي حبيبتي شو به بابا؟؟»

ـ «أنا عارفة إن بابا (مراد) وبابا (داغر) اخوات توأم»

حدجتها (ديالا) بحذر: «وكيف عرفتي؟؟»

ـ «بابا (داغر) قال لي ان اسمه في لندن (مراد) وهنا (داغر). بس دادا (بخيتة) بتحب تحكي لي حكايات عن التوأم وهما صغيرين. عرفت من غير ما حد يحس أو يعرف.. حتى بابا (داغر) معرفش إني عرفت. هو كمان كان بيقع بلسانه كام مرة وأنا أخدت بالي. بس إنتي عارفة؟ أنا بحب بابا (داغر) أوي يا ماما.. زي ما يكون بابا الحقيقي.. يمكن أكتر من بابا (مراد).. بس كنت عاوزاكي تعرفي»

ثم قبلت أمها وخرجت مسرعة.

ألقت ما بيدها بعصبية، لتجهش ببكاء خرج من أعماق قلبها، ليعبر عن حالة من الشتات العاطفي، والضياع في متاهة من العواطف المتناقضة. كانت تعلم من داخلها أنه لا يكذب، وأنه عرضة للإصابة بالشلل في أي وقت كما قال، ولكنها لم ترغب بمواجهة هذه الحقيقة الشديدة الألم. عندما علمت بموت (مراد) حزنت بالتأكيد، ولكن لم يقترب من شعورها عندما علمت بالخطر الذي يتهدد (داغر). كانت تلك الحقيقة كسكين ثالم ينحر يبطئ شديد قلبها، ويتركه ينزف حتى الجفاف. في تلك اللحظة كرهت

نفسها كما لم تكرهها في حياتها؛ لأنها فجأة وجدت نفسها تسامحه، والأكثر غرابة أنها وجدت نفسها لا تمانع لو اتخذ ثلاث زوجات غيرها، طالما ستكون بجواره، رغم أنها شبه متأكدة أنه لو كان له حرية الاختيار لن يتزوج غيرها.

فُتَح الباب مرة أخرى، فأسرعت بمسح دموعها، لتطالع (سولاف) التي أدركت أنها تبكي، فتقدمت بخطوات متهادية بعد أن أحكمت إغلاق الباب خلفها، ثم ألقت لها بظرف كبير أمامها: «دي أوراقك.. جواز سفرك إنتي و(أماليا)، ومعاهم شيك بـ ١٠٠ ألف جنيه.. ممكن تبدليهم بدولارات أول ما توصلي المطار»

احتدت (ديالا): «بس أنا ما اتفقت معك على شي، وقلت لك إني ما راح...

قاطعتها (سولاف) بنبرة ملولة: «أيوة.. أيوة فهمت.. مش عاوزة تهربي. بس دا مش اسمه هروب؛ إنتي بتنقذي نفسك من الحياة الفاشلة مع رجل مزواج، معندوش مانع إنه يجمع بين مراته وخطيبته تحت سقف واحد، ويمكن بعدين يتجرأ ويجيب عشيقاته في أوقات فراغه بينا»

ـ «ومفكرتيني راح أصدق كل اللي بتحكيه عن (داغر) بس مشان تغوّريني من طريقك!؟ (داغر) رغم كل عيوبه بس راجل محترم و...

قاطعتها ضحكة (سولاف) المقرقعة: «فعلًا عندك حق.. هو راجل محترم. والمحترم دا قالك عن سبب تمثيلية الحنان والعطف والشعور بالذنب اللي

بيحسه ناحية أخوه (مراد) الله يرحمه اللي مات بسببه وعشان كدة كان لازم ينفذ وصيته إلخ إلخ وكل الهبل دا؟؟»

اتسعت عينا (ديالا) بقوة، وتمنت لو تطرد هذه الحية كي لا تستمع لما ستقوله؛ لأنها أدركت بغريزتها أنها ستتألم كثيراً مما ستغرزه في رأسها من سم زعاف من أنيابها الحادة.

ـ «وكنتي عارفة يا حلوة إن (داغر) بيه بيعاني من مشكلة مالية جامدة جدًا، وأنه ممكن يبيع نفسه مقابل خمسة مليون جنيه يعمل بيهم إصلاحات للقصر الخربان دا؟؟»

ـ «وأنا شو دخلني!؟؟»

ـ «لأ دا دخلك ونص يا حضرة النايمة في العسل. لما (مراد) قبل ما يموت يعمل وديعة لبنته بعشرة مليون جنيه، ويخلي (داغر) وصي عليها.. يكون دخلك ولا ميكونش؟؟»

هتفت بصوت متحشرج ـ «لا! مستحيل! دخيلك يا الله شو بيصير!؟»

وأكملت (سولاف) بث سمومها: «ومعلومة كمان بس عشان تعرفي أنا بحبك قد إيه. تعرفي أن الشُرطة عندها شكوك إن الحادث اللي مات فيه (مراد) الله يرحمه يمكن يكون...

صرخت: «لا! لا ما تكملي ببوس إيديكي! بس (داغر) كان معه وانصاب في الحادث»

عادت (سولاف) تضحك بتشفي: «معقولة صدقتيه في دي كمان!؟ إنتي مسكينة قوي يا (ديالا)، وصعبتي عليا. الحمد لله أن ربنا حطني في طريقك عشان أساعدك. من رأيي تاخدي المحروسة بنتك وتهربي فورًا، ولما تبلغ السن القانوني ممكن ترجع وتستلم وديعتها. يلا متضيعيش وقت قبل ما المأذون يوصل»

تلفتت (ديالا) حول نفسها بضياع: «بس... (أمــاليا)...

ـ «ولا يكون عندك فكرة.. كنت عارفة إنك عاقلة ومش هترضي بالوضع دا أبدًا. هي دلوقت مع (فؤاد) مستنينك في عربيته برا القصر. بسرعة وأنا هغطي غيابك لحد ما توصلوا لبر الأمان»

تحركت (ديالا) كالآلة، تمسك بالظرف على صدرها بقوة، كأنه القشة التي تتمسك بها. نظرت (سولاف) خارج الباب ثم همست تتعجلها: «بسرعة! مش هتلاقي حد في طريقك دلوقت؛ كلهم مشغولين في المطبخ، و(داغر) في جناحه بيستعد لليلة الكبيرة»

*****

كانت تسير كالثملة، رأسها يفور بالطنين، وكل المعلومات التي بثتها (سولاف) في رأسها تدور لتسمم كل فكرة، وكل عاطفة، وكل لحظة حب فكرت فيها في (داغر)؛ حتى أن قلبها تعلم منذ عرفه أن يدق بشكل مختلف»

وسارت خطة (سولاف) بنجاح تام، عندما وجدت (فؤاد) ينتظرها. فتح لها الباب الخلفي وهو يهمس: «بسرعة قبل ما حد ياخد باله»

وجدت ابنتها تنظر لها بفضول. أجفلت من إغلاقه الباب بقوة. ولم تشعر بالسيارة وهي تنطلق، رغم السرعة الرهيبة التي سار بها بسيارته الكارينز.

ـ «مامي.. مامي..»

ردت بشرود دون أن تشعر بدموعها تسيل: «نعم حبيبتي»

ـ «إحنا رايحين فين؟؟»

صمت رهيب قاتل كان يدور في أجواء السيارة الضيقة، المظلمة إلا من الإضاءة الخافتة التي تركها (فؤاد) مضاءة.

ـ «ماما.. ليه مش بتردي؟؟»

كانت دموعها إجابات لكل أسئلة (أماليا) التي تسألها الآن، والتي ستسألها في المستقبل.

وكأن الصغيرة بفطنتها أدركت أن ما يحدث خارج عن إدراكها، وخارج عن خيارات أمها، فتمتمت: «إحنا مش راجعين لبابا تاني.. مش كده؟؟»

أمسكتها (ديالا) بين أحضانها، لتضمها بقوة متمتمة: «أنا آسفة.. آسفة سامحيني حبيبتي، والله مو بقصدي»

* * * * *

كان آخر شيء رأته، (فؤاد) ملوحًا من سيارته، بعد أن أوصلهما لبوابة المطار، قبل أن ينطلق بسرعته المعهودة، وكأنه يحتفل بانتصاره.

أمسكت يد (أماليا)، التي سارت بجوار أمها كمن يسوقونه للمقصلة.

سلَّمت حقيبتها، ووقفت لتختم جوازات سفرهما. ولكنها ظلت مترددة، وضابط الجوازات بانتظار أن تمد يدها له بأوراقها ليضع ختم المغادرة. تبادلت النظرات مع ابنتها، والوقت كالسلحفاة، دون أن تتوقف أيهما عن الدموع الصامتة. كانا مثار مشهد الآخرين، ولكنهما لم تشعرا بأي شيء آخر حولهما.

بدأ النداء على الطائرة. تبادلت الفتاة وأمها النظرات: نظرة تتوسل أن تعيد التفكير في قرارها، ونظرة تتمنى لو تستطيع أن تفعل.

النداء الأخير على الطائرة، وضابط الجوازات يحثها لتسلمه الجوازات. فجأة رنين هاتفها يعيد الأمل في عيني صغيرتها، التي أشرقت بنظرة توسل جديدة. همت بغلق الهاتف، ثم تراجعت لتسلمه لابنتها بعد أن قرأت اسم المتصل: «ودعيه»

ثم أومأت بتشجيع، و(أمـاليا) تأخذ منها الهاتف لتضعه على أذنها.

استمعت لبعض الوقت، ثم تغيرت تعابيرها الحزينة لرعب وخوف ودموع تسيل بكثافة. تحولت ساقي (ديالا) لقالبين من الجيلاتين، وهي تكاد تصرخ: «شو في!!؟؟ أمـــاليا!!»

مدت لها الهاتف، قائلة ببكاء حارق: «ماما دا (سوار). بيقول إن بابا في المستشفى وإنه تعبان قوي. ماما.. مش ممكن نسيبه لوحده.. مش كده؟ ماما بليز بابا لوحده ومافيش حد معاه بيحبه زينا»

وأخيراً قررت قرارها المصيري.. لن تتركه!

بدأت شفتي (أماليا) المهتزتان بالدموع تتسعان بابتسامة، وأمها تهز رأسها بقوة.

- «الله يسامحني على ها العملة! وتضرب (سولاف) براس أخوها! (سوار) حكالك شي عن عنوان المشفى؟؟»

* * * * *

(١٥)

قبل ساعة..

طرقات على الباب. تحركت (سولاف) بدلال وفتحته، لتنقلب ابتسامة (داغر) لعبوس، وهو يحاول النظر خلفها لرؤية (ديالا). قلبت (سولاف) شفتيها بابتسامة متشفية: «إيه بتدور على عروستك يا عريس!؟ بتدور عليها إزاي وأنا قدامك منورة أهه!؟ المأذون هيكتب كتابنا الليلة. مش معقول نرجّعه بعد ما جه المشوار دا كله»

حاول التحكم بأعصابه، وهو يتمتم بهدوء مفتعل: «هي فين؟؟»

ادعت الغباء: «قصدك مين؟؟»

زمجر: «ســـ..ولاااف!»

- «آه.. قصدك عروستك الشقرا؟»

ثم نظرت لساعتها: «متهيألي إنها دلوقت طايرة في السما راجعة لبلدها ومعاها القردة الصغيرة»

لم يشعر بنفسه وهو يجذبها من تلابيبها، صارخًا بكل الغضب الذي حاول أن يكظمه تجاه هذه المخلوقة منذ عرفها: «إنتي بتقولي ايه!!؟ إزاي وأمتى!؟؟ إنتي عملتي إيه انطقي؟؟»

كشفت عن وجهها القبيح، وهي تدفع يديه عنها، صائحة بصوت كالفحيح: «أيوة اتخلصت منها، زي ما هتخلص من كل حد يقف بطريقي ويمنعني عنك يا (داغر). أنا عمري ما شكيت بذكائك لحظة واحدة. إزاي كنت

فاكرني هسمح لك تهيني للدرجة دي!؟ تتجوز قدامي واحدة تانية، وتأجل جوازك مني. تحطني أنا (سولاف الأسيوطي) على الويتنج ليست بتاعتك يا (داغر) بيه!؟ غلطت غلطة عمرك لما فكرت مجرد تفكير إني ممكن أتهاون في حقي»

أعاد شعره للخلف بأصابعه، صائحًا بشحوب: «يا ربي! هي ضاعت مني خلاص!! أعمل إيه بس يا ربي!؟؟»

هتفت بدون أن تصدق ما ترى: «انت بتحبها للدرجة دي!؟ إمتى وإزاي!؟»

ـ «الحب كلمة مش ممكن تعرفها مخلوقة كريهة زيك. عارفة ومتأكدة إني مش بحبك ولا بطيقك، ومصرة تلزميني بوعد وعدته لعمي قبل ما يموت من عشر سنين. لو كان عندك أي شعور أو إحساس، غير حبك للفلوس طبعًا، يمكن كنتي حسيتي إني مش هتجوزك إلا وحبل المشنقة حوالين رقبتي. ولكن إن كنتي فدائية للدرجة دي، وعلى استعداد توصلي لـ (ألكسان) بأي طريق، ولو عن طريق إنك تدفني جمالك وشبابك في خدمة رجل مشلول طول حياتك، اتفضلي المأذون لسة قاعد مستني.. هكتب كتابي عليكي فورًا»

هزت رأسها غير مصدقة: «مشلول!! ومين!؟ انت!!؟ مش ممكن تكون انت!! انت واقف قدامي!!»

ـ «حياتي انتهت في الحادثة اللي راح فيها (مراد). الدكاترة قالوا لي وقتها إني لازم أعمل عملية جراحية عشان الشظية المستقرة في فقراتي العنقية، ولخطورة مكانها، وقربها من الحبل الشوكي، أقل تقدير هتصيبني بالشلل النصفي، وغالبًا هيكون شلل رباعي. هه يا (سولاف).. عندك استعداد تضحي مع اللي باقي مني طوال حياتك مقابل (ألكسان)؟؟ آه نسيت أقولك.. أنا كتبت القصر والجناين لـ (ديالا) بيع وشرا، ونقلت لها الوصاية على بنتها في وديعة (مراد). باختصار إنتي مش هتلمسي قرش واحد من فلوسي ولا قالب طوب من (ألكسان).. لا في حياتي ولا بعد موتي»

أنهى جملته الأخيرة، والعرق يتفصد من جبينه، يكاد ينحني صارخًا من شدة الألم. راقبته بعينين متسعتان بذعر حتى انهار أرضا يتلوى من الألم الضاري الذي يكاد يفتك به. تخطته وأسرعت تغادر المكان. قبل أن يجتمع الخدم على صوت صرخاته المرعبة.

* * * * *

{ الخاتمة }

فتح عينيه ليرمش بقوة، عندما أبهرهما ضوء الشمس الساطع.

ـ «حبيبي انت فقت؟»

التفت لها، ليشرق وجهه المنهك من التعب: «إنتي لسة هنا!؟ قلت لك تروحي البيت وترتاحي.. إنتي تعبتي كتير»

ـ «راح روح بس لما تكون إيدي بإيدك.. ماراح أتركك مرة تانية أبدًا»

أشاح بنظره باتجاه المقعد المتحرك في زاوية الغرفة البعيدة: «إنتي متأكدة؟؟ أنا مش هقدر أغصب عليكي في...

وضعت أصابعها على شفتيه: «دخيل الله ما تحكي هيك! أنا سمعتك كتير وآن الآوان لتسمعني. أنا غلطت لما سمعت لـ (سولاف). كنت عارفة إنـا بتكذب.. بس كان لازم أحس اني حرة مرة تانية مشان آخد القرار الصح. كنت مستعدة أخدمك برموشي عمري كله وأنا سعيدة وما ناقصني شي»

ـ «بس أنا مش ممكن أطلب منك التضحية دي»

ـ «أنا ما بضحي يا (داغر) إلا بحياتي لو سافرت وتركتك. سألتني مرة سؤال.. بدك تسمع الإجابة هلا؟»

أومأ بابتسامة جميلة خففت من خطوط الإرهاق المرسومة حول شفتيه، فأردفت تستحثه: «اسألني»

ازدادت ابتسامته اتساعًا: «إنتي مش هتسهّلي عليا أي حاجة، رغم إني رجل مسكين ومعاق؟»

هزت رأسها بالنفي، فأردف: «أوك.. عرفتي إزاي؟؟»

توردت وجنتاها، رغم أنها هي التي طلبت السؤال، ثم قالت بعد أن استمدت الشجاعة من نظرات الحب التي تطل من عينيه: «لما كنت ويّا (مراد)، كانت مشاعرنا روتينية ما فيها إحساس، رغم إننا ما اتزوجنا إلا عن حب.. بس الحب انطفى بريقه بسرعة. لكن وياك الإحساس مختلف.. أجمل، وأروع. كان فوق الخيال. عرفت لأني حبيتك حب حقيقي ما جمعني مع (مراد) أبدًا.. كان معك انت وبس»

أمسكها من يدها، ليقربها من صدره يضمها بقوة، وقبّل جبينها هامسًا: «الحمد لله إنه رضاني بيكي»

- «مو لحالي»

أومأ: «آه طبعًا.. و(أمـــاليا) كمان»

أمسكت يده ووضعتها على بطنها. لم يصدق بما تحاول إخباره، فنظر لها غير مصدق بحذر.

- «إيه (داغر).. أنا حبلى»

- «وخبيتي عني كل الوقت دا!؟»

رفعت أكتافها: « عرفت الحين ليش اتأخرت بجيتي لهون؟ كنت ممنوعة من السفر بأوامر من الطبيب حتى ثبت الحمل. ما كنت بعرف كيف أخبرك، ولا كيف أوثق فيك بعد كل اللي صار»

ـ «ودلوقتي عرفتي لما بقيت معاق!؟»

ـ «ما تقولـا! الدكتور قال إنها فترة مؤقتة، وبعد العلاج الفيزيائي هتقدر تستعمل إجريك مرة تانية»

رد بصوت منهك: «مع العكاز طبعًا»

أشرقت بابتسامة مداعبة: «وليش العكاز وشو فايدتي معك!؟»

ضحك وضمها من جديد:

«شكرا على هديتك الثمينة لي يا الله»

ـ «لساتك مديون بشكر تاني»

ضاقت عيناه محاولًا التفكير، فأردفت ضاحكة: «أنا فتحت وديعة (أماليا).. وبدأنا في إصلاحات (ألكسان)»

اتسعت عيناه بدون تصديق: «إصلاحات!! في القصر!؟ بس دا مستحيل!! دي فلوس (أماليا)!»

ـ «والقصر كمان لـ (أمـاليا)، ولا انت ما بدك البنت تورث قصر سليم!؟»

تنهد بتعب: «أمنية حياتي.. وإنتي حققتيها. وحققتي كل أمنياتي وأحلامي. ياترى أنا أستحق كل السعادة دي دفعة واحدة!؟»

ـ «راح نفكر بحل سوا. بعد ما تترك المشفى وتبدأ العلاج الفيزيائي، ممكن نملا (ألكسان) تبعك بأخوات (أماليا) و(داغر) الصغير»

قال بنظرة ماكرة: «هو لازم نتمسك بالترتيب دا؟ صدقيني ممكن أبدأ بالتنفيذ وأنا هنا»

ضحكت برقة خطفت فيها قلبه مرة أخرى: «ما في فايدة منك انت»

ـ «إنتي عاوزاني أتغير؟؟»

احمرت وجنتاها، ثم سألته فجأة لتغيير الموضوع: «ما خبرتني شو عملت بـ (سولاف) حتى حلتك من وعد بيـا»

ضاقت عيناه متسائلا: «وعرفتي موضوع الوعد دا إزاي؟؟»

احمرت وجنتاها مرة أخرى، فتنفس بصعوبة: «متعمليش كدا تاني»

ـ «شو عملت يا زلمة!؟»

ـ «تبقي حلوة أوي كدة فتخليني أنسى كل حاجة عن التصرف بحضارة، وألبس جلابية الرجل الشرقي المتخلف، وأخدك في حضني، ومش أسيبك إلا... لما تقولي بحبك يا (داغر)»

هزت رأسها ضاحكة: «إيه لو كانت رغباتك هاي تتعلق فيني، ما عندي مانع. غير هيك ما فيها غير طيران الرقاب متل ما الصعايدة بيحكوا»

ـ «معناها بتهربي من الاعتراف. ماشي نرجع لموضوعنا. هي قالت لك.. مش كده؟ لما أقنعتك تهربي ليلة فرحنا»

أطرقت بخجل: «إيه.. خبرتني.. بس متل ما قلت لك، أنا كان بدي أتحرر، وهي ما أقنعتني. أنا مثّلت عليها، وهي صدقتني الغبية»

أمسك يدها، ورفعها ليطبع على أناملها قبلة متباطئة بتنهيدة راحة كبيرة، وأردف: «وهنت عليكي تسيبيني؟»

- «بس رجعت.. يا زلمة اقرأ ما بين السطور»

طبع قبلة أخرى على راحة يدها هذه المرة، وتمتم: «شكرًا لك»

- «وليش الشكر ها المرة!؟»

- «لأنك بدلتي لقبي من (الذئب المستوحد) لـ (رب عائلة فخور) و... (عاشق)»

أمسكت يده لتطبع عليها قبلة هي الأخرى، ثم تمتمت بصوت شجي من العاطفة: «ارجع لي بالسلامة سالم غانم معافى، وتكون سددت دينك بالتمام والكمال.. بحبك يا (داغر)»

تمتم مرة أخرى شاكرًا: «الحمد لله»

تمت بحمد الله

[قصر (ألكسان) باشا]



يعد قصر (ألكسان باشا) والحديقة الخاصة به، واللذان يطلان على شاطئ نيل (أسيوط) مباشرةً، واحدًا من أقدم وأفخر القصور التي كانت تزخر بها مدينة (أسيوط)، وطالت أغلبها يد الهدم ومعاول الإزالة، لإقامة أبراج سكنية ضخمة -كئيبة- بدلا منها، لا يحمل بناؤها أي لمسة جمالية، أو ملامح إبداع فني أو معماري. لكن قصر (ألكسان) كان من القصور القليلة والنادرة التي نجت بأعجوبة من مقصلة الهدم والإزالة؛ ليقف عملاقًا شامخًا، بموقعه الفريد والمتميز، وحديقته التي تضم أشجارها أحلى وأجمل أصناف ثمار المانجو والجوافة، في شارع الثورة بحي شرق (أسيوط).

يرجع تاريخ بناء وإنشاء القصر وحديقته، في موقعه شديد التميز على النيل مباشرة، إلي نهاية القرن الـ ١٩، أي قبل أكثر من ١٠٠ عام، ويشكل بناء

القصر معلمًا أثريًا وحضاريًا وجماليًا وسياحيًا فريدًا. ويتكون من طابقين تم بناؤهما بنظام الحوائط الحاملة، وتحتوى واجهات القصر على زخارف وكرانيش مميزة، وعقودًا نصف دائرية، وتشكيلًا مثلث الشكل بالزخارف على الطراز الإغريقي، وتُجمّل شبابيك القصر كرانيش غاية في الدقة والروعة، أسفلها زخارف بارزة بشكل مستدير ونصف كروي، أضفت على القصر رونقًا وجمالًا معماريًا وفنيًا فريدًا؛ حيث شارك في بنائه وتصميمه فنانون إيطاليون وفرنسيون وإنجليز؛ مما أكسب القصر طابعًا فنيًا وتنوعًا جماليًا وحضاريًا، ينفرد به بين قصور أسيوط ومعالمها الأثرية الأخرى.

وفي ١٩٩٥/١٢/٢، صدر قرار المجلس الأعلى للآثار بضم وتسجيل قصر (ألكسان باشا) بأسيوط إلي قائمة الآثار الإسلامية، كما أصدر رئيس مجلس الوزراء قرارًا بتحويل القصر إلي متحف، كشاهد على ملامح (عصر كامل) مضي، تميز بالجمال والروعة والإبداع والفن الجميل.

الغريب والمثير أنه -رغم هذه القرارات- فلم يتم حتى الآن نزع ملكية القصر من قبل وزارة الثقافة، برغم أنه تم تقدير قيمته بمعرفة لجنة خاصة بحوالي ١٨ مليون جنيه. والسؤال الذي يطرح نفسه: متى يصبح القصر متحفًا قوميًا ومزارًا، يطّلع فيه المواطنون والسياح والوافدون على ملامح حقبة فريدة وعريقة من تاريخ شعب، وحضارة أمة، من خلال هذا القصر

الأثري الفريـد الجميـل؟؟ ولا شـك أن ذلـك يعـد مطلبًا مشــروعًا لشـعب (أسيوط)، لأن يكون له متحفًا يضم مقتنياته التاريخية.

◄ كل المعلومات التي بجانبها علامة (★) في الرواية حقيقية.

الكاتبة: ميرفت البلتاجي.

بكالوريوس خدمة اجتماعية.

كل كتاباتي على الشبكة العنكبوتية تحت اسم (فايرفلاي).